الدكتور أحمد سليمان الأحمد

# على هامش الكتاب الأخضر

حسني يوسف المويشي

على هامش

# الكتاب الأخضر

الدكتور أحمد سليمان الأحمد



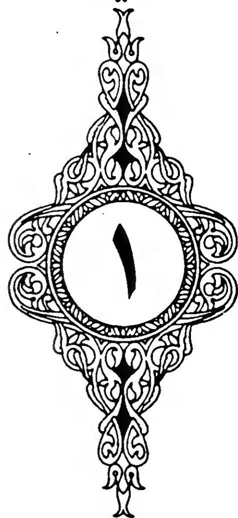
# على هامش الكتاب الأخضر

الطبعة الأولى

١٩٨٢

يطلب من
دار قتيبة
دمشق - شارع مسلم البارودي
هاتف : ٧١٨٧٩٠

# مُقَدِّمَة لابُدَّ مِنْهَا



هذه دراسات تطمح إلى مقاربة فكر معمر القـذافي ، ومحاولة فهمه الفهم الصحيح ، للاستفـادة منـه استفـادة مثلى في بناء أنفسنا ، في بناء العالم .

وهذه الأفكار التي استطعْتُ استخلاصها حسبما فهمت من «الكتـاب الأخضر» ، لا تلـزم أحـداً إلاّ نفسي ، فما أزعم أني أنطق باسم غير اسمي ، ولكنّي واثق من أنـي مخلص في كل ما أقولــه ، صادق في كل ما أعرضـــه ، مُسْتَقْصٍ ـ بِما لديَّ من إمكانات فكرية وقلبية ـ للنظرية التي أدرسها ، وللعقيدة التي يهمني أن أقدّم فيها رأياً ، أو تقتضيني أن أقدِّم رأياً .

## هل الحماس عامل إيجابي أم سلبي ؟

لقد جئتُ النظرية ، يحدوني عاملان : الموضوعية والحماس ، واستطعت ، بذلك ، أن أُقبل طويلاً وملياً على الفكر الجماهيري وعلى مواقف صاحبه ، أجيلُ البصر والبصيرة ، كي يهتدي من اهتدى عن بيِّنة . ووجدتُ لِذلك يداً بيضاء ؛ وكلُّ شيء ، من خير وشر ، مرهون بظروف وشروط . وشتان بين عبادة الفرد التي يمليها متسلط طاغية ويتقبلها إنسان أو ناس خنوعون أذلة بالترغيب أو الترهيب ، وبين قناعة وإيمان يريدان أن يؤ ديا للفرد المتميز المحسن حَقَه ، لأنَ هذا حقه ، لا نفرِّط له به ، كما لا يُفَرِّطُ الله له به . وهذه هي جدليَّةُ المواقف والأحكام . وقد تغيمُ المفاهيم أمام بعض العيون ، ولكنّ هذا لا يغيرُّ شيئاً من الحقيقة . ولا شك في أن الفرد العظيم يحاولُ ـ بتواضعه وتجرده ـ أن يجعل العامل الموضوعي يمتدُّ على خريطة الحياة والتقدم ، ولكنَ الفكر الواقعي ، بصراحته وحَسْمِهِ ، لا بد له من أن يخلي

للعامل الذاتي المكان الـذي هو به جدير . فالشرائـع ، ماكان منهـا سماوياً ووضـعياً ، لم تُلْـغِ دور الفـرد في المجتمع ؛ ونحن من خلال الاعتراف بهذا الدور نحض على حركة مستمـرة ، صعـوداً وسعـةً وعمقـاً ، في بحـر الجماهير . ونحن ، من خلال تقدير هذا الدور ، نؤدي حقاً لانسان ، وواجباً على أخيه الانسـان ، ونحـن إنمّـا نمجد من خلال كل ذلك قيماً وأسلوباً ونضالاً ومعرفـة ، علينا أن نُقَرِّبهَا منا أو نقترب منهـا حتـى نتمازج . وهـذا الفرد ، عندما لا يكون أو لا يغدو هذه القِيم ، فما هو من تمجيدنا في شيء ، وما هو منا في شيء . ولو تخلَت قيمه عنه لغدا هو الخاسر في الميزان ، وظلت القيم تغري وتجذب وتتألق . وفي تاريخنا العربي ـ البدوي الأصيل ، دلالات جميلة . كان الفارس العربي يرضيه أن يثني عليه الناس . بل هو يطلب ذلك منهم طلباً . ومثل هذا الثناء كان نوعاً من النقد السلبي أو الايجابي يمارسه المجتمع ـ أو يطلب الفارس أن يمارسه المجتمع إزاءه . وهو في حالة الإيجاب كان حافزاً له ودافعاً إلى تحقيق مآثر جديدة . ولعلّنا نذكر

حين طلب عروة الصعاليك إلى أقرب الناس إليه أن تثني عليه ، وعندما هتف الفارس الآخر ، عنترة العبسي :

أثنـــى عليَّ بمـــا علِمْـــت ، فإنني
سَهــلٌ مُخالَقَتــي إذا لم أُظْلَم
فإذا ظلمـــتُ فإنَ ظلمـــيَ باسلٌ
مُرٌّ مذاقتـــه كطعـــم العلقم

ولقد هَزَّني تعبيره ـ بما علمت ـ وإننا لانثني إن شاء الله إلاَّ بما علمنا ، ولا نظلم أحداً . وعندي أن الذي يسكت عن الحقيقة والحق شيطان أخرس ، لا يقلّ عن الشيطان الناطق عن الهوى .

## الأفكار العظيمة هي نتاج الحاجة العظيمة

فإذا جئنا أفكار الكتاب الأخضر المؤلفة نظرية عالمية متكاملة ، عبرت الحدود العربية إلى القارات الخمس ، وعقــدت ـ وتعقــد ـ حولهــا النــدواتُ والمحــاضرات والمناقشاتُ في العديد من مدن العالم وجامعاته ، ما كان

لي إلاّ أن أشير إلى أمور أساسية .

إنّ الأفكار العظيمة هي نتاج الحاجة العظيمة . ولقد تحالف على وضع النظرية العالمية الخضراء **العقل والقلب** ، ورَدَ فهما عامل آخر ، هو فوقهما ، ومع ذلك فليس غيرهما ألاَ وهو الإلهام . ونحن نعرف أن كل فكرة عظيمة لا بد لها من إنسان عظيم العقل . وقد يتحالف مع هذا العقل العظيم قلب عظيم فتصبح الفكرة أكثر إنسانية أو تجد لها مزيداً من المحبة ، إلى جانب مزيد من الاقتناع ، فالعقل هو العلم ـ ربما بكل منطقيته وجفافه ـ، والقلب هو الإنسانية بكل ما تسع من حب الناس ، وهي طموح إلى هدايتهم وإسعادهم ، وإلى وضع كل ما يقود إلى الهداية والسعادة في يدهم .

ومع ذلك فإن هناك شيئاً وراء القلب والعقل . وعندي أنّ هذا الشيء يتمثل في مراحل ثلاث : الحلم والإلهام والوحي . أما الوحي فقد اختص الله به أنبياءه ، ونحن ندرج ذلك في مسار الإيمان ، ونأخذ به على هذا

الأساس . أما الحلم فهو المرتبة الأدنى بين هذه المراتب الثلاث ، ولكنه أيضاً صفة عظمى للانسان العظيم ، والحلم يرود عوالم لا يرودها القلب والعقل ، ولكنه أيضاً دَمْج للرؤ يتين في أسمى مجالاتهما . وقد يبدو أحياناً غير منطبق مع رؤ ية القلب والعقل ، وليس مستبعداً أن تكون الرؤ ية الأصدق والأصفى هي رؤ يته ، ولكن هذا لا يَنفي أن تثبتَ الأيامُ أنَّ رؤ يته لم تعط الخير المنتظر ، أو أنَّ رؤ ية القلب والعقل معاً هي أصدق وأصفى إذا تناقضت مع رؤ ية الحلم . أما الإلهام ، وهو أسمى مراحل الاستشفاف الإنساني فإن رؤ يته تظلُّ هي الأصدق ، وهي الأصفى ، وهي الأهدى ، مهما بدا لنا فيها من تناقض مع رؤ ية القلب والعقل معاً ، ولا بُدَّ في مرحلة متقدمة لرؤ ية القلب والعقل من أن تنسجم مع رؤ ية الإلهام ورؤ ياه أيضاً ـ لا فرق هنا ـ .

ولربما بدا لبعض أولي الثقافة السطحية ، الآخذة من العلم بقسط ضئيل ، أننا بذلك ندخل النظرية في متاهات

غَيْبِيَّة أو هيولية ، لا ترضى عنها مادةُّ العلم . ولكنَّ الإلهام شيء واقعي لأنه نتيجة مقدمات ليس ثمة أكثر منها واقعية . إنه لم يكن لأي إنسان ينشد الراحة فيستلقي تحت شجرة ثم تسقط عليه ثمرة أن يكتشف قانون جاذبية الأرض ، ويكون نيوتن . لقد درس نيوتن وجرَّب ، وسهر الليالي ، وفكرَّ ، وتأمل ، وحلم ، ثم فجأةً استنارَ له الدرب . فهذا اللمح ـ الإلهام إنما هونتيجة العمل ـ الفكر ، المستديم ، المجتهد ؛ وكان لا بد من استعداد نيوتن الفكري كي تشرق تلك اللمحة ، أو ربما كان هناك من درسوا ، وتأملوا ، وسهروا الليالي ثم اكتفو من الغنيمة بالإياب . فالإلهام هُوَ نتيجة واقعية للحب العظيم ، والمعرفة الغزيرة العميقة ، والصدق في كل ذلك صدقاً يُوَلِّدُ ـ من تفاعلهما في الانسان المتميز ـ لَمحَ الإلهام ، وهو أيضاً إنسان متميز لأن لمح الإلهام قد أشرق في نفسه .

ولا شكَّ في أنَّ حركاتٍ كثيرةً أو قليلة ، استخدمت العقل ، أو استخدمت القلب ، لإنقاذ قومها أو ربما لإنقاذ الناس ، ثم فشلت هذه الحركاتُ لأسباب كثيرةٍ رَدَّ

البعضِ جوهرَها إلى أنّ الظروف لم تكن ، بَعْدُ ، ناضجةً لإنجاحها . ونتج عن هذا الجوهر أخطاءٌ كثيرة وقع فيها الداعون ، كانت بمثابة العَرض ، كأن يكون الداعون غير مخلصين ، أو في غير مستوى الدعوة ، أو كأن تقوم هناك جماعة تحرِّف الدعوة ، أو كأن تبطش بها قوة أخرى ، إلى ما هنالك . ولكنَ هذه الحركات ـ النظريات لم تذهب دون فائدة ، لأنه لا بد للإنسانية من تاريخ ، والتاريخ هو تفاعل جدلي لهذه الأحداث ، ولأن أية حركة مهما بلغت من القدرة المادية والمعنوية ، ومن التقدم الزمني ، لا بد لها من أن تجد ممهداً ـ بشكل من الأشكال ـ في تلك الحركات الثورية الناجحة أو الفاشلة بمقدار ، الحاملة الحق والحقيقة أو الباطل والزيف بمقدار . وهكذا لو أننا تمنينا مثلاً أن تكون النظرية العالمية الخضراء قد انبثقت منذ مئات السنين أو ألوفها ، فوفَّرت على الإنسانية مآسيها وفواجعها ، لكانت تلك امنيةً باطلة ، لأن كل شيء منُوط بسبب ، وزمن ، وظروف وشروط . وهكذا ما كان لهذه النظرية أن تنبثق إلاَّ في أواخر القرن

العشرين ، وإلاَّ في البلاد العـربية ، وإلاَّ في فكر معمـر القذَّافي الذي تألـق فيه فجأة استعـداد أمتـه واستعـداد العصر ، وهـذا الاستعـداد هو حصيلـة أجيال وتجارب وعمليات لا تحصى قامت بها عقول وقلوب وأحلام كثيرة تقتضي منا هذا التنويه .

هذه الرسالة ـ النظرية ، لا يمكن لها ، وهـي العـربية المنطلق ـ وهذا يؤكد عالميتها ـ، وهي المتوجهة إلى العشيرة الأقربين ـ العرب ـ والمتوجهة في الوقت ذاته إلى العالم ، إلاَّ أن تكون دعوتها قد راعت كل ذلك . ففي عصرنا لم يعد من الممـكن أن تنفـرد جزيرة معزولـة في اوقيانـوس العالـم بازدهارها وسعادتها وهداها ، لأنَّ علاقات العالم قد تعقدت وتشابكت ، وما لم يَغْدُ العالـم حراً في فكره وتطبيقه فإنَّ من الصعوبة أن نتصور الحـرية الكاملـة في مكان منفرد محدَّد من هذا العالم . ويخطىء خطأً كبيراً من يظـن أن الكتـاب الأخضر هو للمجتمعـات المتخلفـة . هؤلاء القائلـون يريدون أن يحولـوا وجهـة الـزحف ، فيلجأون إلى هذه الدعـوى بأن النظـرية قد انبثقـت فيما

يسمى العالم الثالث ، وهي لا تصلح للعالم المتقدم الذي تجاوز سواه كثيراً في مدى الرقي والاكتفاء . ومثلما لم يعد ضربة لازم على الشعوب أن تنتقل تدريجياً ومرحلياً من الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية ، إذ أثبت الواقع عدم ضرورة ذلك بل عدم منطقيته أيضاً ، ففي رأينا هنا ، أنَّ المجتمعات المتقدمة ، أو ما نقول عنها الآن إنها كذلك ، هي أحوج ما تكون إلى هذه النظرية ، لأن هذه الأزمات التي تجتازها ، وهذا القلق النفسي والاضطراب الاجتماعي ، وهذه الحضارة التي أصبحت معرَّضة لأقصى الأخطار ، تبدو لها النظرية العالمية العربية وكأنها طوق النجاة في كل ما عرَضته على صعيد الديمقراطية والاقتصاد والاجتماع ، لأن جميع الأمراض التي يعانيها العالم الثالث تعانيها أيضاً الدول المتقدمة ، وإن كان ذلك في أشكال أخرى وجوانب أخرى ، ولكنها في الجوهر والغاية واحدة . فالديمقراطية مثلاً التي يشكو العالم الثالث من غيابها غياباً مطلقاً ، والتي تبدو وكأنها ليست كذلك تماماً في العالم المتقدم أو ما اصطلحنا أن

نسميه كذلك ، لو عدنا بالتحليل العلمي والقلبي الصحيح إلى حقيقة ما يجري من تحكم أرباب العمل والسلطة لراعنا حتماً غياب الديمقراطية الحقيقية . ربما كانَ غيابها في صورة مغايرة مختلفة عن صورة غيابها في هذا البلد أو ذاك ، ولكنه غياب أي بعد عن الديموقراطية .

ولو أخذنا الخوف الذي يسيطر في دنيا العالم الثالث لوجدناه يسيطر في دنيا العالم المتقدم ، ربما بدرجة أكبر ، وإن كانت مظاهر الخوف متنوعة .

ولو عدنا إلى الناحية الاقتصادية لرأينا أن الأزمات متشابكة وأنَّ هناك قلقلة في البناء الاقتصادي وأزمات ومشكلات لا تجد حلاً ، بل تجدُ نوعاً من التأجيل في انفجارها ، وهذا التأجيل يتخذ هو الآخر أشكالاً عديدة ، ديما غوجيه وقمعية ، وديما غوجية - قمعية ، وغير ذلك .

ولعلَّ من عرف بالعرقية والعنصرية ، ومن لا يزال

يحمل آثار الفاشية في معتقداته ، لا يرضيه أن تكون النظرية الجديدة قد انطلقت من العالم الثالث ، من البلاد العربية بالذات . هذه النظرة العرقية المتخلفة الرجعية دحضها التاريخ وسيره المتقدم . ولقد أخذت القياصرة والأكاسرة العزة بالإثم ، من قبل ، فلم يطمئنوا ، أولم يريدوا أن يظهروا أمام شعوبهم بمظهر الاطمئنان ، إلى كون الرسالة الهادية تأتي من تلقاء البداوة ، ثم انطوت تلك النظرة الغريبة عن العلم والحياة ، وانطوى القائلون بها لتخلد الرسالة وتنتشر ، وليهتف غوستاف لوبون : لولا العرب لتأخر ركب الحضارة ألف عام .

إنَّ المناداة بعصر الجماهير ، عصر الجماهيريات ، لم تكن لتجد مكاناً وظروفاً واستعداداً للانطلاق كما تجد في ليبيا ، فهي البلد العربي العريق ، المحتفظ بقسط كبير من النقاء ، والذي صهرته المعارك الطويلة القاسية في سبيل الحرية والسيادة ، والذي صنعت منه الوحدة أمام الموت وحدة أمام الحياة ، فكان البلد المؤهل لأن يؤلف كلاً مع

فكرة قيام الجماهيرية التي شعارها أن السلطة والثروة والسلاح بيد الجماهير . ولعلَّ هذه الجماهير ، في مستقبل غير بعيد ، تجد نفسها غير محتاجة للسلاح عندما ينتصر عصرها ، وهذا ما يجب أن يحفزها على مزيد من الاستيقاظ المبكر على أفكار الكتاب الأخضر ، لأنها السبيل الناجع الوحيد للقضاء على الأسلحة ، الشر الأعظم المهدد لكل مدنيتنا بكل نظرياتها وجماهيرها .

## انتقال مجتمع متطور إلى عصر الجماهير انتقالاً فورياً عملية ممكنة

ولعلني أرى بصدق وإخلاص وحرص على دخول المجتمع الانساني عصر الجماهير بأقصى ما يكون من السرعة لصالح جماهيره ، أنَّ عملية انتقال مجتمع عظيم التطور إلى عصر الجماهير انتقالاً فورياً هي عملية ممكنة ومطلوبة ، تقتضي الوعي العظيم للمسؤولية ، وتقتضي جرأةً عظيمة ، لأنَّ العصر الجماهيري هو عصر جديد نوعياً وإن لم يكن منفصلاً عن عصور سبقته . وهذا

الجديد الأعظم يقتضي ، لكي نجابهه ، جرأة عظمى . إنَّ التغيير عملية إيمان ووعي ، وبها نتمكن من التأقلم النفسي مع الواقع الجديد ، بعد أن نكون صنعناه في فترة الجرأة العظمى .

إنَّ الجماهيرية قائمة الآن ، نموذجاً ، في بلد متميّز ، ولكنه من ناحية اخرى في عداد البلدان النامية التي تبني الآن صناعتها وتقنيتها الرفيعة . وعلى الجماهيرية - وهي أول دولة في العالم تطمح إلى تطبيق النظرية - أنْ تتجاوز المرحلة المكية - عنيت بها مرحلة النضال الداخلي في سبيل انتصار النظرية -، كي تنطلق إلى المرحلة المدينية - أي تنتقل النظرية وتطبيقها الفذ الذي هو الجماهيرية إلى بلدان أخرى ومجتمعات أخرى . وإني شخصياً أرشح أهم البلدان المتقدمة للنهوض بهذه المهمة ، بتلك الجرأة العظمى التي أشرْتُ إليها . وسنرى بعد ذلك أي خير ينال المجتمعات ، وأي صحة في النظرية ينجلي عنها التطبيق .

ولقد ذكرتُ الجرأة العظمى وألحَحْتُ عليها لأن الإنسان

والمجتمع قد يقفان ، أحياناً ، خائفين مترددين أمام جبروت هذه الآلة الجبارة التي هي نظام حياتي معين ، والتي تتقدم بفعل التقاليد والعادة والرضى المستسلم ، مع أن تحدِّي هذه الآلة المخيفة ولجمها ، وَتَسَلُّمَ منتج جديد زمام أمرها عملية أسهل مما يظن الذين سيقومون بها ، لأنَّ التغييرات الكيفية قد نضجت في المجتمع الانساني وعلينا أن ننهض بحركة التغيير النوعي العظمى .

## التطبيق في مستوى الفكرة

في مجتمع الجماهير الجديد لا بد من النضال المستمر الواعي المتيقظ ؛ على المجتمع أن يكون حقاً مجتمع النظرية ، أي أن يعيها وعياً كاملاً ، وأن يؤمن بها ايماناً كاملاً ، وأن يكون التطبيق في مستوى الفكرة .

حركات كثيرة في التاريخ الانساني كانت ثورية آناً ، إصلاحية تارة ، نهضت باسم الانسان ، باسم الجماهير المسحوقة المظلومة ، باسم العبيد ، باسم الحرية ، باسم

القضاء على الاضطهاد وتعميم نوع من العدالة والإخاء والمساواة والكفاية الكريمة . بعضُ هذه الحركات اتخذ العنف ، وبعضها قُيِّضَ له مجال للتطبيق ، سواءٍ كان محوطا بقوة موالية أو قوة معادية لا تترك له فرصة واسعة لالتقاط الأنفاس كما كان الأمر بالنسبة لحركة الزنج التي أقامت دولة في أوساط الدولة العباسية ، طوال خمسة عشر عاماً ، ثم انهارت لأن الظروف الموضوعية كانت غير ناضجة ، ولأن الحركة قد حادت عن خطتها الأولى ، وفقدت الكثير من مبدأها وحماستها ، ومن مبررات وجودها .

وبعض هذه الحركات ظل فكرةً يتناقلها الناس ، ولا يُتاحُ لهم أن يجهروا بها ، أو يجسدوها ، إلى آخر ما هنالك من أشكال ومضامين في التاريخ ، وفي الانسانية . ولكن وسط كل هذه الحشود من الحركات والأفكار يبرز الانسان كهدف رئيسي ، بل كهدف وحيد تسعى إليه وتناضل في سبيل تحقيق حياة أفضل له .

وجدلية الحياة تقتضي أن الحركة التي تجعل الانسان

قطب الرحى ، هي الحركة أيضاً التي ينهض بها الانسان ، فيدير هذه الرحى لتعطي الطحن المنشود ، وربما لتطحن ما يعتقد أنَّهُ عدو له .

يبقى الانسان إذن في محور الحياة ، في محور المبادىء ، في محور النظريات والتطبيق . كل شيء له ، ومن أجله ، مبتدىً ومنتهى . كل شيء مُسخَّرٌ له حتى الليل والنهار والشمس والقمر . ولا قيمة لأية نظرية ما لم يكن هناك إنسان يدعو إليها ، وإنسان يطبقها ، وإنسان يستفيد منها ، وربما إنسان يناقشها فيعاديها أو يعتنقها . لذلك فإني أرتاح إلى الاعلان بأنَّ فشل الأفكار والنظريات في حدود ما صوَّرته لأتباعها وللناس ، يعود الكثير منه إلى أن هذه النظريات لم تتوصل إلى أن تهيء لمجتمعها وللعالم الإنسان الجديد . ومهما كانت الافكار عظيمة ، رائعة ، جذابة ، إنسانية ، فإنَّ نجاحها أو فشلها متوقف على هذا الانسان الجديد ـ المتجدد ، الذي يطبقها ويسير بها أشواطاً ليسلمها إلى جيل جديد له انسانه الجديد أيضاً .

هذا الانسان الجديد هل هو موجود قبل النظرية أم أن

النظرية هي التي تُسْهِمُ في إيجاده ، أو أنها تحيي جوانب انسانية محدَّدة ، وتحاول أن تقضي على جوانب أخرى ؟ إني أعتقد أن النظرية تقتضي صنفاً من الرجال والنساء ينسجم مع تعاليمها ، ويستطيع أن ينهض بها . وهذا الصنف قد تصوَّره صاحب النظرية ، أو بالآحرى قد أمْلَتْهُ الأفكار التي تنادي بها النظرية . فلا يمكن مثلاً لفكرة أخلاقية أن يكون دعاتها من هؤلاء الذين لا خَلاَقَ لهم . ولا يمكن لفكرة أن تدعو إلى الايمان في حين أن القائلين بها والتابعين لها من الملحدين والعدميين ، أو على الأقل من الجاهلين بأية دعوة أو رسالة سماوية . وليس من المعقول أن ندعو إلى اشتراكية علمية ونحن قوم مشبعون بالفكر الرأسمالي ، أو على الأقل لم نتسلح بالفكر الاشتراكي العلمي ، ولم نقتنع ، علمياً ، بصحته . فإذا كان الانسان في المجتمع الاشتراكي مازال يؤمن بالاستغلال ، وبكل أخلاقيات المجتمع الرأسمالي ، فإننا على ثقة من أن هذا المجتمع الاشتراكي سيلاقي صعوباتٍ من داخله ، وأنه سيكون مهدداً في كل مرحلة بالانهيار ،

أو التفسخ ، أو التلاشي . لا يكفي أن تكون الفكرة أو النظرية صحيحة ، أو أقرب ما تكون إلى الصحة ، بل لا بد من انسان في مستواها ، مؤمن بها ، متمثل لها ، عمقاً وسعةَ مدلولات ، كي يستطيع النهوض بها ، وتجسيدها ، وإقامة المجتمع الجديد على أساسها . ولئن كانت الثورة ، حتى عندما تنتصر ، أضعف من النظام المغلوب ، لأنها قد أحدثت انقلاباً في القمة ، ولم تستطع بَعْدُ أن تمد الانقلاب إلى كل جوانب المجتمع ، فإنَّ باستطاعة هذا النظام المغلوب أن يستفيد من هذا الضعف الكامن في الانتصار ، ومن هذا الواقع ، من هذه الحقيقة ، فيحوِّل المعركة مرةً جديدةً لصالحه ، ويكون فشل المجتمع الجديد حينذاك أمرَّ وأدهى لأنه يكون قد جرف ، بفشله ـ ثقة الناس بالجديد ، بالتغيير . وهذه نقطة هامة لصالح الأنظمة القديمة ، المتأصلة ، في النفوس وفي المجتمع ، بتقاليدها ومفاهيمها المتحجرة ، التي أصبحت بقوة المعتقد والدين .

أقصد بإيراد هذه الحقيقة أن حامل العقيدة الجديدة

لا بد له من أن يكون انساناً جديداً متميزاً ، كي يتحمل المسؤ ولية الجديدة ، مسؤ ولية نجاح العالم الجديد . أي لا بد للعالم الجديد من إنسان جديد . فإذا كان عالمنا الجديد عالم النشاط والعمل والإخلاص والتجرد والإخاء والمعرفة والصدق والمسؤ ولية ، ما كان لنا أن نتساهل مع الخمول والكسل والانتهاز والحسد والجهل والكذب والغوغائية وغير ذلك من الأمراض .

لا بد للعصر الجماهيري ، لا بد للجماهيرية من انسان جماهيري نستطيع أن نطمئن بوجوده الى أن الجماهيرية ستظل جماهيرية ، أنها لن تنتكس ، وان الجماهيرية لن تكون مجرد صياغة لفظية ، ولقد يوجد الانسان الجماهيري الأول قبل النظرية ، ولكن الانسان الجماهيري ، كَمُجْتَمَع ، لا بد له من النظرية الجماهيرية ضابطاً ، كما لا بد من قواعد اللغة ضابطاً للغة ، ومن العروض ضابطاً للشعر .

# اللجان الثورية

هنا يبرز دور اللجان الثورية ، وأريد هنا ، دون توقف ، أن أشير إلى مدى الفائدة العظمى التي تلحق بالثورة العربية عندما تتحول الأحزاب العربية الثورية الى لجان ثورية ، أو يتحول اخلص من فيها ، وأوعى من فيها ، إلى لجان ثورية تحرض الشعب على تَسَلُّم السلطة ، دون أن تنفرد بالسلطة ، أو تحاول الانفراد بها ، ودون ان يكون لها من السلطة إلا ما يعود اليها كأفراد في جسم الشعب . لقد قام الرجال العظام في تاريخنا ، المناضلون والمناضلات المؤمنون ، المجموعات الانسانية المضحية التي قضت في سبيل تحرير الانسانية ، هؤلاء قاموا بدور اللجان الثورية .

إن دور اللجان الثورية اساسي في انتصار الجماهيرية . اللجان الثورية تحرض الجماهير على أن تأخذ بيدها كل السلطة والثروة والسلاح . والتحريض على شيء يقتضي الايمان العميق به ، والحرص الشديد على نجاحه ، وعلى

أن تكون له في النفـوس ، وفي المجتمـع ، على جميع الأصعـدة ، جذوره العميقـة الصامـدة كتلك الشجـرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء .

فالتحـريض إذن هو إيمـان بالمبـدأ ، وبـالنفس ، وبالجماهـير ، وثقـة أصيلـة في كل ذلك ، يرافقهما قلـق خلاق ، متحـرك ، خـير ، حريص على ان يرى الحياة الجماهيرية في تفاعلها المعطاء وقد أخذت بالسلطة والثروة والسلاح . وهي إذ تأخـذ بكل هذا نطمئـن الى أن تلك الأقانيم الثلاثة قد أصبحت لأول مرةٍ في التاريخ ، في يد صاحب الحق فيهـا . ولـكن هذا القلـق الخلاق الـذي ذكرناه ، والذي يوصلنا ، يوصل الجماهير إلى أن تضع في يدها ما يضمن لها أنها أصبحت ذات سيادة حقاً ، ذات كرامة حقاً ، وأن باستطاعتها أن تبني سعادتها الـروحية والمادية على اسس سليمة صحيحة ، هذا القلق الخـلاق هو الذي لا يرتاح إلا في السهـر المستـديم على السـير في الطريق الأصح ، وعلى الإسراع بتقويم كل عِوَج ، مُغْتَنِياً بتلك التجارب ، متمرساً اكثر فاكثر في وعي معنى العصر

الجماهيري ، والنهوض به . ومن هنا كان على اللجان الثورية صاحبة هذا القلق الخلاق أن تمارس الرقابة الثورية ، على المجتمع وعلى نفسها ، في سبيل مزيد من ترسيخ سلطة الشعب . ولا بُدَّ لها من أن تُنْمي دوماً في نفسها المعرفة الثورية من خلال التعمق بفكر الكتاب الأخضر وشروحه ، ومن خلال المعايشة النضالية المتجردة للتطبيق . وهذه المعايشة ، تقتضي حتماً ، الممارسة بأعلى مستوياتها ، وأجلى صورها ، وأنقى مدلولاتها . وبذلك يمضي المجتمع في تصاعد مستمر ، جياش ، كفيل بطرد ما يَعْلَقُ من خَبَثٍ ، كي يبدو في أكمل شكل ومضمون . وهما شكل ومضمون يغتنيان باستمرار ، ويتأصلان باستمرار .

ولاشك في آن عطاء اللجان الثورية ، القوى الثورية ، الأفراد الثوريين ، يجب أن يكون عطاء دون انتظار مكافأة مادية ، لأن هذه المكافأة المادية تجعل منه موظفا ، وتجعل منه تابعاً أو مجاملاً أو متسامحاً إزاء الفرد أو المجموعة اللذين يكافئان . ويُفْقِدُه هذا حرية العمل ، أو ينال من

هذه الحرية ، ومن القدرة على التحرك ضمن حدوده الثورية ، في جميع أبعادها .

إن عمله الثوري النقي هذا هو دافع وحافز وواجب نفسي وأخلاقي ، وليس بحال من الأحوال ، ممَّا يحمل عليه العمل الوظيفي . فالثوري هو عامل في نطاق المجتمع ، يؤدي دوره الذي ينال عليه مكافأة الشركاء في العمل ، ويتخلص بذلك من الحاجة التي ستحمله على أن يفقد شيئاً من حريته ، وبالتالي من دوره الثوري وسط الشركاء . فاللجان الثورية إذن هي رَفع الثورية إلى أعلى مستوى من التجرد والوعي والإخلاص والمسؤولية والحركية ، ومكافأة الثوري هي في تمكنه من تأدية دوره ، وفي تمكنه من ربح ثقة الناس ومحبتهم ، دون أن يجعل منهم تابعين له ، أو نوعاً من الحاشية والبلاط ، بل هم مؤمنون بمقولة «السلطة والثروة والسلاح بيد الشعب» وما تقتضي هذه المقولة من فكر وتطبيق يُعَزِّزانها ويجعلان منها حقيقة واقعة ، لا نخشى عليها الانتكاس أو الفشل .

هل يقودنا ذلك إلى تصور الإنسان المثالي ، أو إلى الأخذ بالنظرية المثالية المطلقة ومدى ما يجره علينا كل هذا من اعتراضات وجيهة أو غير وجيهة . وهل يحمل ذلك قليلاً او كثيراً من الناس على القول بأن الطبيعة الانسانية لم تستطع أن تتخلص من الحافز المادي . وهذا الحافز المادي سيترك دوماً في أعماقنا ميلاً الى السلطة ، والى استغلالها ، قليلاً او كثيراً ، لصالحنا أو لغير صالحنا . إذن فالانسان الثوري الذي نبحث عنه للتحريض والرقابة والترشيد غير موجود أصلاً ، لذلك نصاب ببعض الإحباطات عندما نحاول أن نجده على صعيد العمل والواقع ، في تحركاته وتصرفاته .

الحق أن النظرية تفترض وجود هذا الإنسان . ولكنه يظل إنساناً يتأثر بما يحيط به ، يحاول أن يحمل الأثر الإيجابي ، وأن يبث هذا الأثر في بيئته ، بتكثيف ومردود اكبر وأجدى . لذلك لابد له من أن يعود دوماً الى النظرية يستمد منها القوة والهدى والتصميم والحماس ، كما يعود البطل الأسطوري «أَنْتيِ» الى الارض يستمِد منها القوة

على مصارعة خصمه كلما رفعه هذا الخصـم عن الأرض ليحول بينه وبين ملامستها ، ويفقد بذلك سر قوته .

إذن لابـد من خوض معـركة الحياة وسـط الجماهـير ، وبذلك لا يفقد الانسان الثوري هذه القـوة السحـرية . كما لابد له من أن يكون مزوداً بالنظرية ، مؤمناً بهـا ، مصـمماً على العمـــل على هداهـــا . فيكون هذا بمثابـــة البوصلة التي توجهه في خضم الحياة من جهة ، وبمثابـة الوقود الحياتي الـذي لا تنفـد طاقاتـه . إن الابتعـاد عن الجماهير معناه فشل الانسان والفكرة . ولا يمكن لفكرة أن تكون عظيمة ، وأن تكون مجدية إلا بالجماهـير ومـن خلال الجماهير ووسط الجماهـير ، ولا يمـكن لانسـان ان يكون ثوريا حقيقياً إلا بسلوكه هذا النهج .

ولاشـك في ان الرقابـة هي مهمـة المجتمـع جميعـاً . والمجتمع هو الرقيب على نفسه ، ولكن هذا لا ينفي دور اللجان الثورية في الرقابة لأنها في مرحلة معينة هي التـي تقوم بالتحريض ، وبالتالي لابد لها من الرقابة على حسن

النهوض بما حرضت عليه . ينحصر تحريضها في أن يكون للشعب سلطته وثروته وسلاحه . وتنحصر الرقابة في أن يكون هذا الشعار مطبقاً بكل أعماقه وأبعاده وروحيته وقوته المادية . واللجان الثورية اذ تحرِّض الجماهير على تسلم السلطة والثروة والسلاح لا بُدَّ من أن تكون ، بهذا المفهوم ، كياناً مرحليا. إنها زائلة بارادتها وبوعي الجماهير. ومهمتها هي مهمة طليعية ، نضالية ، متجردة ، مضحية ، واعية دورها التاريخي . ومن خلاله تعرف ان كل يوم يُقَرِّب الجماهير من انتصارها النهائي الكامل ، في شخصها وفي حياتها ، إنما هو يوم ينطوي من عمر دورها ، اي من وجودها أصلاً . وهذا الفهم يفتح في الدرب مفرقين : فأما احدهما فيؤدي الى الهدف الذي قامت اللجان الثورية أصلاً من أجله ، أي الأخذ بيد افراد الشعب الى تفهم نفسهم ودورهم . فاذا تمَّ ذلك تكون اللجان الثورية قد وفَّت قسطها للعلى ، وعليها ان تندغم في الجماهير وأن

تمارس ما تمارسه الجماهير . وهكذا تصب هذه الروافد في نهر الحياة العظيم بعد ان كانت متشعبة عنه في رحلة خصيبة لتحريض النماء والعطاء في الطبيعة والانسان .

أما المفرق الآخر فيؤدي ـ نعم إلى أن تصبح اللجان الثورية حزباً تقليدياً . فمصلحتها اذن ـ والحالة هذه ـ في أن تؤخر يوم الوعي ، يوم الانعتاق ، وأن تطيل من أمد وصايتها على الشعب ، وتجد ، في النهاية ـ أن الامور تسير سيراً حسناً بالنسبة لها في غياب الشعب .

إذن علينا أن لا نعتقد بأن مجرد قيام الجماهيرية ، ومجرد إعلان قيام سلطة الشعب ، يعني اننا قد وصلنا . صحيح ان قيام الجماهيرية قد وضع كل الأسس الممكنة للحكم الجماهيري ، أي أن يكون الشعب حراً ، سيداً ، حقيقة وواقعاً . ولكن ما زال مهدداً بأخطار الانتكاسة ، وإن كان التركيب الداخلي للأجهزة الجماهيرية كفيل ، في المرحلة المتقدمة ، أن يشفي نفسه بنفسه ، في كل مرة يتكون داخل الجسم ما يهدد بالمرض ، كالجسم السليم

القوي الذي يتغلب على أمراض غير مرئية ، وغير محسوسة طالما يتمتع بهذا الانسجام البنيوي السليم القوي .

ولقد حذر صاحب النظرية وقائد الثورة من أن أمراضاً ـ في مرحلة التكوين النهائي الذي يقود الى قيام ذلك البنيان السليم ـ قد تنفذ الى هذا التكوين . وأشار الى أن الفوضى والغوغائية والتسيب مثلا ، تلك التي يمكن ان تنتج عن سوء فهم وسوء تطبيق لفكرة السلطة الشعبية ، قد تغري ، في تفاقمها ، مغامراً عسكرياً أو مدعوماً من طغمة عسكرية فتعصف بمكتسبات الجماهير ، باسم الحفاظ على هذه المكتسبات ، كما تعصف بحرية الجماهير باسم الحفاظ على هذه الحرية .

ولقد صدق المحاورون والمناقشون والمجادلون ، أياً كانوا ، وأيةً كانت مقاصدهم ، عندما رأوا أن مجرد تبديل أمين بوزير ، أو عضو مؤتمر عام بنائب ، لا يحل شيئاً من القضية . فالأمين سيظل يحن الى سلطة الوزير ، وجاه

الوزير ، واستغلال الوزير ، وعضو المؤتمر العام سيظل
يحن الى تمثيل الشعب ، الى النيابة عن الشعب ، والى
الإفادة من كل ما ينتج عادة ، عن ذلك . لهذا ، فاني
أدعو في المرحلة الجماهيرية الأولى ، خاصة ، الى المغالاة
في اطراح ما يميز الوزير او النائب أو من لَفَّ لفهما ، حتى
تلك المظاهر التي قد لا نلاحظها في ظروف عادية .
ويجب أن لا نعتقد ، لحظة واحدة ، بأن مثل هذه المظاهر
لا علاقة لها بالديمقراطية الجماهيرية ، بل أزعم أن لها أثراً
نفسياً وسيظل يمتد سنوات طويلة حتى ينسى المجتمع
الجماهيري والانسان الجماهيري مثل هذه العقلية ،
ويطرحها نهائياً . وهنا أيضاً للشكل تأثير على المضمون ،
ولا يمكن لنا ان نحتج بأن ضرورات تقتضي أن نظهر
بمظهر الحكام والأمراء ، مادام من حولنا هكذا . أبداً ،
المظهر له انعكاس على المخبر . وكذلك يجب ان يكون
للمخبر انعكاس على المظهر . وكان عمر بن الخطاب اكثر
هيبة ، واكثر اقناعاً في عصره لهؤلاء الذين يمثلون
ما نسميه العالم الآخر ، وذلك في مظهره المتواضع وفي

حياته الانسانية من معاوية وقصر الخضراء . وعلينا أن نأخذ بما قال عمر بن الخطاب . او بمؤدى ما قال ، رداً على احتجاج من نوع احتجاجنا الحالي بأن الظروف تقتضي الظهور بمظهر الحكام : اننا جئنا لنعلمهم كيف نحكم ، لا لنتعلم منهم كيف يحكمون .

إن الذين توليهم جماهيرهم المسؤولية ، هؤلاء الذين يُصَعِّدهم الجماهير لينفذوا إرادتها ، عليهم فعلاً أن يأخذوا أنفسهم بالشدة ، وعليهم أن يثبتوا كل يوم ، وفي كل تصرف ، أنهم حملة مسؤوليات من طراز جديد . وإلا تكوَّنَ لدى الناس مفهوم لا ينفك يتفاقم حتى يبث اليأس النهائي في النفوس من إمكان تغيير الانسان . فاذا لم يتغير الانسان فشل العالم الجديد مهما سَجَّلَ من تقدم مادي .

ولاشك عندي ، لحظة ، في ان الوزارات والزعامات والرئاسات ، غدت تسيء الى كرامة الانسان ، كإنسان ، الى كرامة الجماهير كجماهير وهذا شيء جوهري . توقفت

عنده آملاً أن يجد تفهماً وحافزاً على إحياء الأخلاق العربية الثورية ، الأصيلة ، ضمن الإطار الثوري العلمي الحديث الذي رسم خطوطه الكتاب الأخضر ، وشروح صاحب الكتاب . وواجبنا تعميقه في النفوس ، وتجسيده في الأعمال .

## هل هناك من لا يريد مناقشة قضاياه

أذكر ، في ندوة «مدريد» حول «الكتاب الأخضر» أن بعض الباحثين قد ذكر بأنه ربما كان هناك كثيرون أو قليلون من أبناء الشعب لا يريدون أن يباشروا السلطة كأن يناقشوا في امورهم وقضاياهم ، ولا يمكن لنا نحن أن نجبرهم على ذلك .

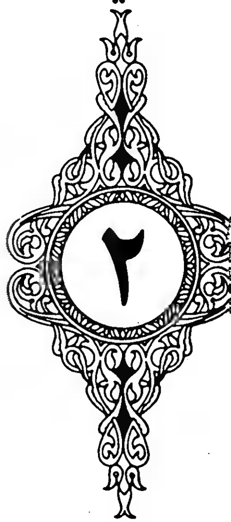
صحيح أنه قد يكون هناك مثل هؤلاء الناس ، وهذه نتيجة عدم وعي من جهة ، ومن جهة اخرى فإن الأجيال التي تواترت وهي لا تملك من أمرها شيئاً قد تولد لديها شبه إيمان واعتقاد بأنه لا دور لها في الحياة ، وإنما هي تتبع

ولا تقرر . إذن هذا الشعور هو نتيجة مادية لأوضاع غير صحيحة ، يريد العصر الجماهيري ، الفكر الجماهيري أن يقضي عليها . وبالطبع ، هذا من مهام اللجان الثورية بالدرجة الأولى . وقد أشار الى ذلك قائد الثورة في محاضرة له في ١٧ فبراير ـ شباط ١٩٧٩ ، إذ قال بأن هنالك الآن من «لا يكترث بالمؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية» لكن «لابد من أن يأتي ناس من بعدهم يعتبرون التمسك بالمؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية مثل التمسك بالحياة نفسها» .

وفي الفاتح من سبتمبر ـ أيلول ١٩٧٨ أعاد قائد الثورة الى الأذهان أن «اللجان الثورية لن تمارس السلطة الشعبية ، على عكس الأحزاب السياسية ، وإنما تمكّنُ الجماهير من الاستيلاء على السلطة ، وممارستها بواسطة تنظيمها في مؤتمرات شعبية ولجان ثورية» .

ولابُدَّ ، لانصاف الجماهير وانصاف اللجان الثورية ، من القول إن هذه اللجان ، إذ تمارس تحريض الجماهير ،

إذ تحتكُّ بها ، وتعي متطلباتها ، وتستشرف آفاقها ، فانها أيضاً تلميذة لهذه الجماهير ، بمعنى أنهَّا تدرك حقيقة هذه الجماهير ، وتتحلىَّ بأكثر مزاياها أصالة واستنـارة ، وهـي تستمد وتستلهم جماهيرية أحلامها ورغباتها وصراعاتها ، وهي عندما توقظ في الجماهير تلك الأصالة والاستنـارة ، فإنها تكون تؤدي واجبها ، وتؤدي حق الجماهير .




# لِماذا الجماهيريّة ؟ وما هي العلاقة الجدليّة بين الشكل اللفظي والمضمون الفكري ؟

من الأفضل دوماً أن تجيء الفكرة في شكل هو أقرب ما يكون التصاقاً بها ، أي أن يتزاوج الشكل والمضمون في وحدةٍ عضوية .

ولا تكون الفكرة هي هي إلا في هذا التزاوج الناجح .
أو ربما كانت ، من دون هذا التزاوج ، تبدو وكان شيئاً جوهرياً ، أو شيئاً منشوداً على الاقل ينقصها . وعندما نريد أن يجيء المضمون الانساني في شكل لفظي أقرب إلى الكمال والجمال ، فما ذلك مِنا ذَهاب وراء لفظية ممجوجة ، أو نوعٌ من الانصراف عن الجوهر إلى العَرَض ، إذ لابد في كل شكل هندسي من جمالية شكل لصيقة به . فاذا كانت الهندسة هي الفكرة فإن شكلها هو

الطابع الجمالي الذي يظهرها للعيان ، فترتاح اليه الأنفس بمقدار ما تحمل من طاقة حياتية ، وهي طاقـة مضمـونية وشكلية .

وعندي أن علم الاصطلاح قد لعب دوراً كبيراً ـ وربما في أيامنا هذه قد غدا متنامياً بأحجام غير معهودة من قبل ـ فنحن أحياناً نقبل هذه الاصطلاحات هكذا ، بمدلولاتها الجديدة ، المتعارف عليها ، أو التي اكتسبناها من خلال علم من العلوم . إننا نقول : «الشعوبية» ونقصد بها كل حركة تريد النيل من تراث الأمة العربية ومن وحدتها ومن قدرتها على بناء تراث جديد ووحدة جديدة . والشعوبية في الأصـل ، مأخـوذة من الشعـوب ، أو هـي نسبـة الى الشعوب . فالمفروض ـ لولا أن علم الاصطلاح أرادهـا كما ذكرنـا ـ أن تكون حركة انسـانية ، أو هـــي نوعٌ من الامية . وان «الاممية» التي نطريها اليوم ، كان يمكن لها أن تغدو شيئاً جديراً بهجومنا لو ان الاصطلاح وضعها مكان «الشعوبية» وكانت الشعوبية حرية أن تنال شيئا غير قليل من تأييدنا ، لو أنها وضعت موضع «الاممية» ولكنه علـم الاصطلاح .

ونحن نقبل مثلاً «اللغة العامية» تعبيراً عن هذه اللهجات المتعددة التي يلهج بها العرب في شتى أصقاعهم ، والتي لها مثيل في كل شعوب الدنيا ، كبيرها وصغيرها ، والتي أخذت تتلاشى مع الثقافة ووسائل النشر والاعلام ، وتوفر وسائل الانتقال واللقاء لمصلحة «اللغة الفصحى» التي هي «لغة الوحدة العربية» ، وليست لغة النخبة أي الأقلية القليلة ، إذ بهذا المفهوم نرفضها ، فالنخبة هي العامة ، هي الجماهير العريضة ، ولا معنى للغة ان لم تكن لغة الجماهير . كما ان الجماهير القومية لابد لها من لغة واحدة ، وهي بالنسبة للقومية العربية اللغة الفصحى . ولا يعني هذا أن لا يطرأ عليها أي تطور ، بل هي في تطور ، مستمر ، خلاق ، مرن ، ولكن لابد من أن يظل هذا التطور ضمن نطاق «الوحدة» و «التقدم» .

وهكذا فإننا عندما نأخذ بتسمية «الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية» لا بد لنا من أن نعي جيداً مدلول هذه الاصطلاحات الجديدة . وعلينا ان نتعامل

مع هذه الصفات بكثير من الوعي والدقة . فالجماهيرية ليست مجرَّد شكل لفظي ، ولكنها بهذا الشكل اللفظي المتميز أرادت أن تُظْهِرَ فكرة إنسانية متميزة . وهكذا لا يمكن لنا ترجمتها إلى اللغات الاجنبية ، بل لا بد من نقلها كما هي في لغتها الاصلية ، بعد أن تُعْمِلَ كلٌّ لغة بعضَ التحوير البسيط في لفظها حسب مُعْطيات طُرُق نُطْقِها .

كان يمكن لمصطلح « الجمهورية » ، أن يبقى سائداً ، وأن نرهقه بشروح جديدة ، ولكنَّ الشكل اللفظي لكلمة «الجمهورية» لم يعد بحدٍّ ذاته موحياً . ومهما حَمَّلْناه من مفاهيم جديدة ، أو مهما حاولنا إيقاظ معانٍ قديمة كامنة فيه فإنَّ عملنا يبقى جهداً شبه ضائع لا يعطي المردود المأمول منه ، وتبقى الجمهورية شيئاً من عصر او عصور تولّتْ . وهكذا جاءت كلمة «الجماهيرية» حاملةً ابعاد الفكرة الجديدة ، والنظام الجديد . بالطبع ، لو أنَّ كلمة «الجماهيرية» ظلت دون ذلك المحتوى الثوري الانساني الذي تحمله من خلال الكتاب الأخضر ، وشروحه ، من خلال فكر صاحب النظرية وقائد ثورتها في التطبيق إذن

مكانت هذه اللفظة عبارة عن مجرّد اشتقاق لفظي ، ولرأى
فيها الكثيرون ـ وربما ، كانوا اذ ذاك على حق ان
الجماهيرية معادلة للجمهورية ، فهذه نسبة الى
الجمهور ، وهو سواد الناس وعامتهم ، وتلك نسبة الى
الجماهير وهي جمع الجمهور ، فالمشكلة لغوية او فنية في
ابعد الاحتمالات .

ولكن عندما أُعلنَ بيان سلطة الشعب في ٢ مارس ـ آذار
١٩٧٧ ، وجاء اسم ليبيا الرسمي هكذا : «الجماهيرية
العربية الليبية الشعبية الاشتراكية» ما كان لنا أن نُبْعِدَ
الحاجة المرحلية الى هذه النعوت . بالطبع ، وهذا شيء
من صميم افكار الكتاب الأخضر كما فهمتها ، لا بد من
أن يبقى الى الأبد النعت القومي لهذه الجماهيرية الاولى في
العالم وفي التاريخ ، بل ولكل جماهيرية في المستقبل .
اذن «الجماهيرية العربية» سوف تبقى . أما النعت
الاقليمي فسوف يخلي مكانه نهائياً عندما تتم الوحدة
القومية العربية ، وقد يختفي أو تدخل عليه إضافات لدى

قيام اية وحدة جزئية كما بين ليبيا وسوريا او بين ليبيا وأي
بلد عربي آخر . أما نعت «الشعبية» فقد كان ضرورياً
بضرورة استدعاء المرحلة لذلك . إذ لا بُدَّ من تفسير
عنواني هو في الوقت نفسه تأكيدي وإصراري على أن
البلاد يحكمها من الآن فصاعداً الشعب ، وجميع السلطات
في يد جميع الشعب . ومثل لفظة «الشعبية» كانت لفظة
«الاشتراكية» لتوحي بشكل حازم أكيد أن الملكية جماعية
بَيْدَ أنها جماعية جديدة ، شركاء لا أجراء .

ولكنْ مع تأصل الفكر الجماهيري ، والتطبيق
الجماهيري ، اخذ يتأكد أن تعبير «الجماهيرية العربية»
يتجاوز ويلغي التعابير الأخرى ، لأنه تعبير متقدم
وفكرة متقدمة ، ونظام متكامل . وأعود فأقول ان التجاوز
او الالغاء هنا لا يعني التناقض أو التضاد حكماً ، ولكنه
يعني الاحتواء بشكل أكثر شمولاً وعمقاً وانطباقاً مع فكرة
الجماهيرية ، إنه يعني قطعاً أن الجماهيرية تحوي في فكرها
وتطبيقها «الشعبية والاشتراكية» أو تحوي إيجابياتهما في
الإطار الجماهيري ، واصبح لا بد من هذا التجاوز الذي

ذكرنا ، من أجل ترسيخ الفكر الجماهيري ، والمصطلح الجماهيري وليس ذلك بالشيء الشكلي ، كما يبدو ، ولكن له انعكاساً نفسياً وفكرياً ، إنه إحياء الشخصية الجماهيرية ، وليس ، على الاطلاق ، طموحاً الى الانفصال عن سلسلة الفكر الانساني والتجربة البشرية .

ولا بد لي من الاشارة الى ان شعار «الشعب» قد رُفِعَ عبر التاريخ السياسي معبراً عن «كيان سكوني» تجري فيه العطالة ، او تجري العطالة في أجزاء كبيرة منه . وهذه «السكونيَّة» تهدد سلامة المجتمع الجماهيري ، اذ يجد اعداء هذا المجتمع المجال واسعاً للتخريب ، وهم قادرون «بحركيتهم» ، على الاستفادة من «سكونية» الشعب . في حين ان «الجماهير» هي «الشعب في كيانه الحركي» ، أي الثوري المستمر في حركته الثورية ، فلا خوف عليه من اعدائه الداخليين والخارجيين . ان «الشعب» ـ عبر التاريخ ، ورغم كل التعاريف ـ بدا ككتلة واحدة ، متراصة في السكونية ، في حين ان الجماهير قوة متراصة في الحركية . لقد استفادت الجماهيرية من كل

الخير والعدالة والمساواة والحرية ، من كل الانسانية الجماهيرية في النظريات الاقتصادية ـ الاجتماعية والفكرية عموماً ، التي سبقتها ، دون ان تكون هي بالذات . وهكذا فإن علينا ترسيخ مفاهيم الجماهيرية ، فكراً وتطبيقاً ، وعلى التطبيق ان يكون دوماً في مستوى الفكر .

في مستقبل قريب او بعيد نسبياً ستندرج صفة «الليبية» في الصفة الاشمل الأخلد «العربية» . وستندرج «الشعبية الاشتراكية» في «الجماهيرية» . وتشمخ هناك «الجماهيرية العربية» بأصالتها العريقة المتجددة ، ونظامها الجديد ، الراسم للانسان درب الانعتاق النهائي . ومن خلال هذه النظرة ، أعلنت في «القصيدة الخضراء» وبحضور قائد الثورة :

ياليبيا ، صوتي أرادكِ جَنَّةً
أسمِعتِه زَرَعَ الورودَ وشجرا
قلبي وشعري الكاتبانِ مشاعري
وعلى شعارِ الاندماج تسمرَا

فإذا بنيناهـا جماهيريةً
عربيةً كنت المثالَ مصغرا
اَلشعب سَيدُها ومالِكُ أمْرِها
وليومِهِ قمرٌ وشَمْسٌ سُخِّرا
إنـي مُواطِنُها . كَفَرْتُ بغير ها
فليهدُرَنَّ دمي جهولٌ كَفَّرا !

---

## هل يمكن أن تكون هناك أحكام مرحلية ؟

---

أعتقد أن مثل هذه الأحكام ضرورية بل لا مَحِيدَ عنها . فالنظرية المتكاملة يهمها أن تطبق بل هي وجدت كي تطبق ؛ والتطبيق يقتضي ـ في مجالات عديدة أو محدودة ـ مُراعاة واقع معين . ولكنْ على هذه المراعاة أن تكون من منطلق ثوري جريء وواعٍ ، لأنها إن لم تكن كذلك سقطت في نوع من الاستسلامية أو التسليم بالأمر الواقع . وشتان بين هذه الحالة وبين وعي هذا الواقع والعمل بثوريةٍ وواقعية معاً من أجل تغييره بما ينسجم مع

النظرية . ولقد قرأت لصاحب النظرية حديثاً في مؤتمر صحفي حول جدول أعمال المؤتمرات الشعبية بطرابلس في العشرين من أكتوبر ١٩٧٧م . جاء فيه : «إن تغيير القيادات الآن ليس من الديموقراطية في شيء ، حتى ولو كان التغيير مباحاً في أي وقت . . . لكن نحن الآن قررنا هذه المدة لأننا نريد شيئاً من الاستقرار ، حتى تمر السنوات الثلاث الأولى من مرحلة التحول . إن تغيير القيادات الآن عمل غوغائي ، متسرع ، وهذا ليس وقته» .

إن المبدأ هو تغيير القيادات متى شاءت المؤتمرات الشعبية ، متى شاءت الجماهير ، هذه حقيقة نأخذ بها ، ونؤمن . ولكن ظروفاً محددة بشروط قد تكون اجتماعية وسياسية واقتصادية تقضي بأن نتصرف ـ خلال هذه الظروف ـ بخلاف ذلك ، كأن نعطي مهلة زمنية كما جاء في المثال المضروب . ولكنْ لا بدّ أيضاً ـ وعَبْرَ هذا التصرف ـ من أن نَشْهُرَ دوماً المبدأ لواءً ونبراساً لنا ، كي لا ننجر نهائياً في الاستسلام للواقع الذي نريد تغييره . إن

التغيير هو المطلوب في النهاية ولكنّ الاسلوب قد يتغير بعامل الظروف والشروط ، دون أن يتغير الهدف ، دون أن يطرأ عليه أيّ تعديل أو أن نمس بجوهره الصحيح . ولا شك في أن مثل هذه المعالجة وعْيٌ عميقٌ لجدلية الثورة الشعبية التي تريد أن تنتصر لصالح الجماهير وليس لصالحها هي فقط . فإذا كان لمؤتمر الشعب العام أن يقرر الابقاء على اللجان الشعبية لمدة ثلاث سنوات ، رغم أن التغيير مباح في أي وقت ، فإنما هي خطوة علمية واقعية ، عليها أن تكون دوماً تحْتَ المُراقبة الثورية العلمية والواقعية بدورها كي نجنب المرحلة سقوطها في التقليدية والاستسلامية ، أي العودة إلى نوع من «الحكومية» التي ألغاها الكتاب الأخضر بكل أنواعها ، كي لا تظل هناك إلا سلطة الجماهير ، إلا «الحكم الشعبي وليس التعبير الشعبي» .

ومنْ هنا ، من روحية هذه النظرة ، يمكن لنا أن نستفيد في حل قضية الاعلام الجماهيري ـ الذي هو إعلام متميز لأنه يبشر «بإتجاه جديد ونظرية جديدة ورؤ ية جديدة»

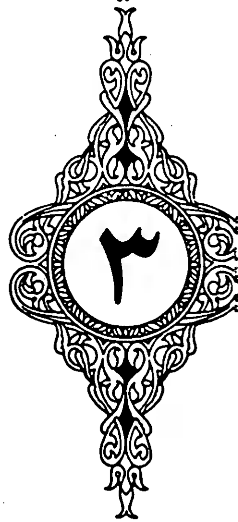
ولا بـد من «تفصيل الأشياء تفصيلاً جديداً» لأن هنـاك «حضارة نريد أن نبشر بها العالم أو نبعثهـا من جديد أو نَصْنَعَها من جديد» «فإذا أخذت قوالب جاهزة وسار المرء على منوالها ابتلعتـه الأشـكال الحضـارية أو السياسية التقليدية الآن» .

إذن لا بُـدَّ من المَرحلية . والمرحلية تقتضي أنْ يَضَـعَ المتخصصون الواعون لفكر الكتاب الأخضر ، والحضارة الجديدة ، برنامجاً شاملاً للعمل ، بخطوطه العريضـة ، بل التفصيلية أحياناً . وليس في الالتـزام بهـا ما يحـد من حرية المبدعين ، أو من سلطـة الرقابـة الجماهـيرية ، بل تكون الرقابـة الجماهـيرية للسهـر على الالتـزام بهـذا البرنامج ، وتكون حرية المبدعين في إغنائه وتلوينه بغنى الحياة الجديدة وتلوينها .

وعندما يتم تأصيل الروحية الجماهـيرية في الاعـلام ، تكون الاحكام المرحلية عامة قد استنفـدت أغراضهـا ، تكون قد أدّت دورهـا كي ننطلـق حقـاً في العصر الجماهيري . وفي باب الأحكام المرحلية يدخل أيضاً تجنيد

المرأة ، فالهجمة الامبريالية الصهيونية المسعورة قد فرضته وإن كان غير منسجم مع طبيعة الحياة .

وبعد ، ألم يقل قائد الثورة في معرض الرد على سؤال وجه إليه : «والله إنه لحظ كبير وشيء عظيم أن تتحقق الوحدة العربية دفعة واحدة . ولكن إذا كانت المعطيات العربية المتناقضة الآن تتطلب إزالتها بعمل مرحلي فعلينا أن لا نفرط في هذا» .



# عصر الجماهير مبشر ونذير

في ندوة جامعة مدريد الحرة حول فكر معمر القذافي ▪ رأى بعض المشـــاركين أن ماركس كان قدرَ قيام الثـــورة البروليتارية في بلد متقدم صناعياً كألمانيا أو بريطانيا ، ولم يجـل ببالـه أن هذه الثـورة التـاريخية ستتفجـر في روسيا القيصرية التي لم تكن لها الدرجة المطلوبـة من التطـور الصناعي .

وقد يكون الباحث قصد من وراء ذلك ، أو لعله أعلن أن هذا كان خطأً ارتكبه ماركس . وقد ردّ عليه ماركسي فرنسي قديم ردّاً ما أظنهُ أقنع أحداً ، قال فيه : للأسف ، إن تقـدير ماركس كان هو الصـواب . والأخطـاء التـــي

حاقت بالماركسية كانت نتيجة عدم تطبيق تنبؤات ماركس !

بالطبع ، لا يمكن لي أنا على الأقل أن آخذ مأخذ الجدية العلمية ما قال به الماركسي الفرنسي ، ولا يهمني الآن ما يكون قد رمى إليه . أو ما هي الخلفيات السياسية أو الحزبية أو الشخصية أو ربما العلمية التي دعته لذلك القول ، ولكني واثق من أن مثل هذا الافتراض لا قيمة واقعية له ، فهو لم يكن ، وما كان عليه أن يكون بالضرورة ، ولو أنه حصل لما ساءنا الأمر ، ولا نتظرنا أن نرى تجارب جديدة ، غنية ، ولكن هذا لا يعني ، بحال من الأحوال ، أن تَعَثُّرَ النظرية مثلاً ، إذا كان قد حصل تعثر ، - وليس بمستبعد أو مستغرب أن يحصل ، مَرَدُّهُ إلى أن الثورة البروليتارية قد تحققت في بلد لم يكن قد بلغ ، بعد ، المرحلة اللازمة من التصنيع ، ومن الوعي العمالي نتيجة لاستنزاف الرأسمالية اللاإنسانية . سيكون هذا مضحكاً من جهة ، وغير علمي من جهة أخرى . فمن كان سيضمن لنا أن انتصار الثورة البروليتارية في ألمانيا

سيجري آنـذاك طبـق التخطيطـات ، أو طبـق الأمانـي والتصورات والأحلام . ثم هل يمـكن لنـا أن نتصـور ، مثـلاً ، أنــه كان من الأفضــل أن تنتظــر روسيا مرور الرأسمالية عليها ، حتى تهب إلى الثورة البروليتارية . إنه منطـق دحضـه الواقـع . وباستطاعـة العلــم دومــاً أن يدحضه .

ذكرتُ هذا وأنا أفكرُ أن الثورة الجماهيرية ـ وهي أشمل ثورة إنسانية ـ قد انتصرت في ليبيا . وليبيا ـ في أول الأمر وآخره ـ بلد عربي ينتمي إلى العالم الثالث ، أي أنه لم يبلغ من التطور التقني والثقافي ما بلغه العالمان الرأسمالي والاشتـراكي ، رغـم الاستعـدادات المادية والـروحية في كيانـه . فهـل يمـكن أن نُبَــرِّرَ خوف هؤلاء النظــريين «الجماهيريين» الطوباويين إذا رأوا أنـه كان من الأفضـل مثلاً أن تنتصر الثورة الجماهيرية في سويسرا أو السويد أو الولايات المتحدة الاميركية .

لقد انتصر العصر الجماهيري في ليبيا ، وهـذا واقـع . وهذا حسن . أولاً لأنّ عصر الجماهير قد انتصر في بقعة

من بقاع الدنيا ، ولا بد لهذا الانتصار من أن ينبثق في مكان ما ، ليكون قاعدة ومنطلقاً ، وليجد تجسيده في واقع نموذجي . ثانياً لأن ليبيا هي بلد مؤهل لأن يضمّ هذا الانتصار وأن يتعهده كي يستمر وكي يزداد رسوخاً وقدرة على مَدِّ ظله حتى يشمل جميع مناحي الحياة . ومَرَدُّ هذا الاستعداد في ليبيا سهل التفسير وصعبه في آن واحد . سهل التفسير إذا أخذنا بأمور بسيطة صريحة صادقة تنطلق من كون ليبيا قد أثبتت أنها هي التي جاءت بالجديد المنشود الذي ظَلَّ حلماً طوال قرون عديدة ، دون أن يستطيع أحد تجسيده في شكل نظري ، بَلْهَ تطبيقي . إنَّ استعداد ليبيا لأن تكون الجماهيرية الأولى في التاريخ وفي العالم قد أكدّه واقع عملي حقيقي ، إذْ غدت بكل بساطة الحقيقة هذه الجماهيرية ، وما على المُحلِّلين إلاّ أن يذهبوا بعيداً أو قريباً في التحليل واستقراء الأسباب ، والاستنتاج ، لكي يتوصلوا إلى هذه الحقيقة المنتصبة بكل حضورها ، وبكل واقعيتها . وهذا الاستعداد يمكن لي أنا مثلاً أن أفسرَّهُ بهذا التاريخ النضالي المتجانس الذي وَحَّدَ

العرب الليبيين أمام الموت ، فكان بالتالي مُوَحِّداً لهم أمام
الحياة . لقد خاضوا معركة الكرامة والحرية والعقيدة على
ساحة الجهاد ، بتضحية وشجاعة وإيمان ، وبالاحرى أن
يخوضوا هذه المعركة على ساحة البناء بنفس التضحية
الشجاعة والايمان . ويجب أن لا نغفل أن كون الملكية في
يد المستعمرين والأجانب بصورة عامة والعملاء
والمستغلين قد سَهَّلَ عملية إعلان وتطبيق «الثروة في يد
الشعب» . وقد يكون هناك شعوب كثيرة خاضت معارك
التحرير أو عانت من الظلم الاجتماعي والاقتصادي ولم
تتوصل بعد ذلك إلى قيام الجماهيرية ، لأنّ علينا أن
لا نُغْفِلَ العامل الموضوعي والعامل الذاتي . العامل
الموضوعي ـ الذي ذكرْتُ ـ جَعَلَ في قرارة النفوس تقبُّلاً
إيجابياً سريعاً ، وحالةً روحية عامة مسيطرة تُيَسِّرُ انتصار
قيام الجماهيرية . ولا شك في أن انبثاق الفرد ـ الجماهيري
في هذه البقعة ، وهو يحمل ، فيما يحمل ، عبقرية
واستعداد أمة مجيدة أصيلة ذات تاريخ أصيل مجيد في عطاء
القيم والبطولة والانسانية ، هو عامل لا بدّ من إحلاله

المنزلة التي هو جدير بها . ومع ذلك ، فما كان تاريخياً ، لهذا الفرد ـ الجماهيري أن ينبثق إلاّ في محيط مؤهل ، روحياً ومادياً ، لحمل رسالة الجماهيرية ، وهذا لا يعني ، بعد ذلك ، أن لا تنبثق جماهيرية أو جماهيريات في هذا البلد أو ذاك ، وهذه الأمة أو تلك ، دون أن يعلم المحللون أسباباً وجيهة لذلك . خاصة ، وأن العالم بأجمعه قد نضج الآن للانتقال إلى عصر الجماهيريات وربما كان لنا أن نفسرّ هذا النضوج بأشكال عديدة ولكنه أيضاً نضوج من تفتحت عيناه وتفتح قلبه ووعيه على الاسلوب الأخير في إنقاذ الجماهير ، في وقت لم يعد من الممكن إلاّ أن يختار الانسان : إما طريق الانحدار المتواصل إلى الهاوية ، إلى الكارثة العالمية ، وسط البلبلة ، وإما طريق الجماهيريات لحلّ كل ما عجزت الأنظمة والأفكار والأشخاص عن حله إلى الآن ، بل ازداد تردياً ، وإزداد خطورة وإنذاراً . ومن قديم قال شاعرنا العباسي :

أمامَكَ فاخترْ أيّ نهجيْكَ تنهجُ
طريقانِ شَتَّى : مستقيمٌ وأعْوَجُ

ولم يَعُدْ بُدٌّ من أن تتسلَّمَ الجماهير المبادرة بتحريض من القوى الثورية ، وأن تبقى ، بعد ذلك ، هي المشرفة على تنفيذ برنامجها ، هي الرقيب على سلطتها ، وعلى ثروتها ، وعلى سلاحها كي لا تصْرَعَ بأحد هذه الأسلحة إذا أُسيءَ استعمالها ، أولم تكن في يد الجماهير ، ولمصلحة الجماهير ؛ ولن تكونَ كذلك إلاّ إذا كانت الجماهير هي التي تملكها وهي صاحبة القرار والتنفيذ فيما يتعلق بها .

وهكذا يجيء عصر الجماهير مبشراً العالم بقيام نظام جديد . وهو جديد ، لأنه لأوّل مرة يتجسدُ في واقع حياتي وفي نظرية متكاملة ، ولكنه جديد أصيل لأنَّه المعبرُ عن أماني وطموحات الأجيال ، وهو حَصيلة تلك الصراعات المختلفة التي خاضها الانسان بجسده وفكره ، عبر الأجيال ، وكلَّفَتْهُ التضحيات الكبيرة والعذابات الهائلة ، وأوصلته إلى الخيار النهائي .

عصر الجماهير إذن هو هذا الخيار . ولكن مُجَرَّدَ رفع هذا الخيار لا يعني انحياز العالم إليه ، بصورة واعية ، أو دون صراعات مريرة هي الأخرى . لأنه كما يحمل البشرى إلى الجماهير فإنه يحمل الانذار إلى المتسلطين وإلى أدوات التسلط التاريخية . وهذه الأدوات تجرُّ وراءَها أساليب مُدَرَّبةً تعرف كيف تنازل وتحاور وتُغَرِّرُ وتقمع بالطبع . وهذه الأدوات داخلية وخارجية معاً ، متآلفة متحالفة ضد الجماهير .

بمقدار ما يحمل إلينا عصر الجماهير من بُشْرى الانعتاق الأخير يجب علينا أن نُوليه من حماسة وتصميم وإيمان ووعي ومعرفة بأنَّ هذه هي فرصة الجماهير الأخيرة ، فرصة الانسانية .

لقد نضج العالم للتحولات الكيفية ، وأصبح علينا انتظار تحقق هذه التحوُّلات ، على ساح الواقع ، في كل لحظة ، وفي كل بقعة ، ولكنه انتظارٌ تتفاعل في داخله الحركة الثورية المدركة لأبعاد التحوُّل الكيفي ، المرتكز

بدوره إلى تحولات كمية أسهم الأفراد ـ الجماهيريون وأسهمت الجماهير في تجسيدها العملي وتحقيقها الروحي . ومن هنا كان لنا أن لا نستغرب مطلقاً ـ بل هذا هو المنتظر بإلحاح ـ أن تمتلك الجماهير فجأة سلطتها في هذه الجهة من العالم أو تلك . ولن تكون هذه مفاجأة ، بل المفاجأة أن يتأخر هذا الانفجار الثوري الحقيقي .

وهناك إنذارٌ آخر يوجهه عصر الجماهير وهو أن انتصاره لا يعني سُكونيةً جديدةً تُلْغي مرحلة النضال ، وإنما هو حركية متواصلة مستمرة ، تحدث في داخله أخطاء ، وأحياناً أخطاء خطيرة ولكن يغدو إمكان اجتثاثها متيسراً دون إحداث هزة عميقة تطيح أحياناً بالكيان الهزيل ، ويكون واضحاً أيضاً أن إصلاح الخلل هذا يكون أشبه بالجَسَد الصحيح الذي هو في صراع دائم ضِدَّ العلل التي تنتابه ، والتي ينتصر عليها دون أن يحُِس صاحب الجسد بهذه العلة الدقيقة المعقدة التي تعتمل في داخله ، مع فارق ، هو أن هذه الحركة في الجسد الجماهيري هي المنتصرة أبداً ، في حين أنها في جسد آخر تشهد انتصاراً

وفشلاً ، وكل ذلك يقتضي طاقات اضافية من الجسد الى أن ينهار ويعتوره الاضمحلال والفناء .

ومن هنا كان لي أن أشير الى أن صراع الأفكار سيستمر في الكيان الجماهيري ، ولكنه سيكون صراعـاً بعيداً عن التحزب ، وبعيداً عن التسلـط ، وبعيداً عن الأهـواء . سيكون صراعاً يعتمد تفوق المرء على نفسه ، فما يبغي إلا مزيداً من التقدم والسعادة والتلاحم في داخـل المجتمـع الواحد ، وبالنسبة للمجتمعات جميعاً . وهـذا ما يُبْطـلُ أيضاً حجة الأحزاب في كونها تدافع عن اتجاه ، أو رأي أو خطة عمل . فهي إنما تدافع بروحية التحزب والتسلط ثم يغدو طبيعياً ، بشعور منها أو دون شعور ، وبقصـد أو غير قصد ، هذا التحزب وهذا التسلط هما الغاية وهما الهدف ، حتى لينسى المرء الغـاية والهـدف الـرئيسيين ، أو على الأقل يصبحان ـ عملياً ـ في المرتبـة الـدنيا . فاذا وضعنا على بسـاط الدراسـة والتحليل مجمـوع تصرفـات الأحزاب ، بدا لنا صراع السلطـة والأهـواء وقـد خلف وراءه كل صراع آخــر ، أو وظّف كل صراع في سبيل

التسلط ، ولا عبرة في كون حزب من الأحزاب ، عندما يصل الى السلطة ، سيبدأ بتطبيق برامجه ، لأنه ، مالم يكن هو الجماهير برمتها ، فستنهض هناك أحزاب تطمح هي الأخرى الى تطبيق أفكارها ، وتعتمد التحزب والتسلط ، بل سيقوم من داخل الحزب الواحد من لا ترضيه النتائج فيطمح هو الآخر إلى أن يحل محل الآخرين من داخل التنظيم ، وهكذا يضيع الهدف ، وهذا ما أثبتته الأحزاب في البلاد العربية ، وبلدان العالم الثالث . أما الأحزاب في البلاد الأوروبية المتقدمة فهي الأخرى ذات أثر مشؤوم على الكيان الوطني وعلى النطاق الدولي في كثير من المجالات ، ويكفي أن قسماً منها وراء الأحلاف العسكرية ، ووراء استعباد الشعوب واستغلال الثروات ، ووراء انطلاق الدولة في درب القرصنة في شتى أشكالها . أي بكلمة مجتزأة صحيحة ان الطاقة الانسانية الخيرة تتضاءل الى أدنى درجاتها ، كي ترتفع الطاقة التدميرية اللاإنسانية إلى أعلى درجاتها . في حين يوفر المجتمع الجماهيري كل الإمكانات لتظل اليد

الإنسانية هي الأقوى وهي الأعلى . فصراع الآراء والأفكار ، والتباري في العمل ، موجهان ضمن إطار الجماهير كوحدة حركية بناءةٍ متصاعدة متلاحمةٍ عاملة جميعاً في سبيل مزيد من الحرية والسعادة والتآخي والشعور العملي بأن على البشر أن ينتصروا على عوامل الفساد والشر والمرض بما فيها التفرقة العنصرية والمطامع من أي شكل ولونٍ كانت .

وما دام عصر الجماهير هو هذه الخيرات ، فلماذا لا تنتصب الجماهير بكل حجمها وتفرض عصرها ؟ الواقع أنه لابد لها من أن تستيقظ على هذه الحقيقة اليوم قبل الغد ، ولاشك في أن أمامها عقباتٍ هائلة يجب أن تجتازها وأن تتغلب عليها . من هذه العقبات ما يدخل في باب مجاهَدةِ النفس والانتصار على عيوبها كالميل الى الاستغلال والتسلط ، ومنها ما يدخل في مجاهدة القوى المعادية كالاستعمار والأمبريالية وكل ما يضغط على الجماهير ويثقل كاهلها ويجردها من فاعليتها . وعلى الجماهير أن تتحلى بروح الجرأة المتناهية والتضحية والثقة

بقدرتها على أن تتسلم مقاديرها بيدها

إننا لو جئنا الى الحرية لرأينا أننا ما زلنا نعاني من فقدها على مختلف المستويات ، وضمن شتى المفاهيم ، ولن تتوفر ما دامت هناك تجزئة وما دامت هناك حزبية وما دام هناك ضعف داخلي تستطيع الأمبريالية أن تنفذ من خلاله الى صفوف الجماهير فتستذلها وتجردها من طاقتها الخلاقة أي من انسانيتها أصلاً . فالعربي الحر في بقعة من بقاع وطنه الكبير لا يمكن أن يَستشعِرَ هذه الحرية بكل أبعادها ، وأن يستفيد منها على نطاقها الأوسع إلا ضمن حرية أمته الكبيرة ووطنه الكبير ، ثم ترتبط هذه الحرية بحرية العالم ، أو الطليعة العالمية . ولا ينفي هذا أن ترتبط حرية العرب في بقعة معينة من وطنهم بحرية الناس في بلد أجنبي قبل تكامل الحرية لهم في أرجاء وطنهم كافة ، لأن هذا الارتباط مِمَا يُسهِّل عملية انتصار الحرية في وطنهم وفي العالم .

وكذلك القول في الاشتراكية التي هي مفهوم اقتصادي

علمي للحياة وفي الحياة بحيث ينتفي الاستغلال والظلم الاجتماعي وتتحقق العدالة والكفاية ، أما الوحدة فهي الكيان الصحيح لهذه البلدان العربية المجزأة التي تتخذ تسميات مختلفة تكاد تغدو أحياناً نائبة عن التسمية القومية ، يتعصبون لها ، ربما بأقوى مما يتعصبون لقوميتهم ، وينتمون لها ، ربما بأقوى مما ينتمون إلى أصولهم ، وما دمنا جميعاً أو في أغلبيتنا الساحقة ، أو في مواقفنا السياسية والمبدأية نرى في قوميتنا العربية التاريخ والحاضر والمستقبل ، وما دمنا نطمح جميعاً أو في أغلبيتنا الساحقة الى الوحدة التي هي بمثابة جَمْعٍ لشمل الأسرة الواحدة المتفرقة ، التي خلق التباعد في قرارة نفسها نوعاً من القلق الوجودي ، فنحن لا نَسْتَمْرِىءُ هذه الدول أو الدويلات ، ونحن نكاد لا نرى فيها إلا كياناً غير مكتمل فهو في حنين دائم الى التكامل ، أقول ما دمنا كذلك فنحن لا يمكن لنا أن نشعر بتكامل شخصيتنا إلا ضمن الكيان القومي . فهذه الدول إذن حالات طارئة ، ومع ذلك فالسياسة ومقتضياتها تجعل منها كيانات

مستديمة ، أو يعاملونها على هذا الأساس ، او هناك احياناً طموحات لدى هذا البلد لأن يضم اليه هذا الجزء من البلد الآخر ، في حين أن البلدين هما جزء من كيان أعمّ ، ولا معنى ـ من الناحية القومية أو المفهوم القومي أو المنطق القومي ـ لهذه المطامح إلا أن يندمج الكيانان كلية في كيان جديد طامح بدوره الى اندماج جديد حتى يتم الاندماج الأكبر ضمن الوطن العربي الأكبر .

أَردْتُ من هذا أن القومية العربية حقيقة تاريخية ومستقبلية ولن يجد العرب أنفسهم ، أينما كانوا ، وضمن أي كيان سياسي أو جغرافي إلا في الإطار القومي . وأردْتُ من هذا أيضاً أن الوحدة العربية هي حقيقة مطلوبة ، بل لا محيد عنها ، أي أننا مطالبون بأن نُجسدَها ، إذن فنحن ننفي من تفكيرنا كونها طارئة أو مستحيلة ، ونؤمن إيماناً عميقاً بأنها من الثوابت غير المتحولة أو المستحيلة . ونحن نقول ذلك لأننا نريد أيضاً أن يتحمل كل كيان آنيّ مسؤولياته تجاه الوحدة ، أي قبل كل شيء أن يُصْبحَ التفكير القومي هو السائد وهو الذي نتحرك من خلاله ، وطنياً وقومياً

وعالمياً فأنا لا يمكن لي أن أكون سورياً ثم عربياً ، بل أنا عربي بصفة مطلقة ، ثم سوري ـ بمعنى أني أؤدي دوري القومي ضمن كيان مؤقت مهما كان عمره في الزمن ، لأن مجال نهوضي بالمسؤولية متيسِّر لي في هذا الجزء اكثر من ذاك الجزء . إن اكبر خطرٍ على القومية وعلى الوحدة أن أشعر أني سوري أولاً . إني عربي قبل كل شيء ، ولا أجد نفسي إلا من خلال هذه الحقيقة ، أما كوني سورياً او مصرياً أو جزائرياً فمردُّهُ إلى تسميات جغرافية لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نجعل منها نوعاً من القبلية الجاهلية الأولى ، لا نريد لها أن تكون جاهلية العصر العربي الحالي واذا كانت كذلك فعلينا ان نحاربها وان ننتصر عليها كما فعلت رسالتنا الروحية التي لم يكن من الممكن لها أن تنطلق بالمدنية والحضارة قبل هذا الانتصار .

هذا أول ما يجب أن نؤمن به . ثم بعد ذلك يمكن أن ندرس وسائل التنفيذ ، ووسائل قيام الوحدة .

بالطبع ، أفضل الوسائل أن نعلن فجأةً ، هذه

الوحدة ، كواقع . ولكن لعل هذا نوع من التفاؤل العاطفي اكثر منه علمياً . ومع ذلك فقد جربنا هذا النوع من الوحدة ، ربما اكثر من مرة ، وفشل في كل هذه المرات . ولا بأس في تجريبه أيضاً رغم أنه قد تنجم عن الفشل آثار سلبية منها أن كثرة الخيبات قد تجر إلى شكل من أشكال اليأس ، أو عدم الثقة ، أو الشك بصحة المنطلق الذي لا يوصلنا إلى نتيجة مرجوة .

ولعل من الوسائل المجدية أن يستمر التحريض الإعلامي والفكري والثقافي لإتمام الوحدة ، وتهيئة الجماهير ليس لِتَقَبلها ـ فهذا أمر بديهي ـ ولكن كي تفرضها وكي تجعلها حقيقة واقعة . هل هذا كلام عاطفي ، أو خيالي ؟ ولكن العاطفة والخيال شيئان واقعان ، محسوسان ، أساسيان في البناء . ولا يمكن لأي عمل عظيم أن يتجرد منهما . لابُدَّ من إعادة الجو الوحدوي إلى أوساط الجماهير ، ولابد لها من أن تجد في الوحدة الانقاذ من المشاكل التي تعانيها . فالقوة والثروة والكرامة والمكانة ، والتحرر والحرية ، كل ذلك كامن في

الوحدة . وعلينا أن ننمي دوماً هذا الشعور ، عن طريق العلم والعاطفة ، عن طريق الواقع والمستقبل . أجل ، علينا ، من جديد ، تعبئة الجماهير علها تفرض هذه الوحدة كما فرضتها على مصر وسوريا ، ولكن على الجماهير أن لا تترك ، هنا ، فرصة للمتاجرين كي يحولوا الانتصارات لصالحهم ، فإن لم يستطيعوا ذلك قلبوها إلى فشل ذريع ، وكانوا هم المستفيدين الوحيدين في كل الأحوال .

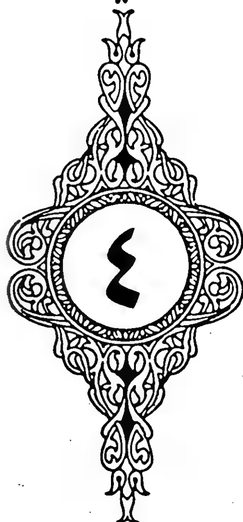
لابد إذن في اعتقادي ، للوحدة العربية من قاعدة ومنطلق صامدين عقائديين قويين مؤمنين . وهذا المنطلق وهذه القاعدة معاً لابد لهما بدورهما من أن يزدادا قدرة على الحركة وعلى التأثير ، بتطوير أساليبهما وحججهما العلمية والحياتية على النطاق الجماهيري . ولابد من استثارة أنقى وأخلص ما في القوى الثورية في جميع الأقطار العربية المحكومة حالياً بحدود ومفاهيم ، مهما بلغ من احترامنا لها ، فلا يمكن لنا إلا أن نُقر بأنها ليست حدودنا القومية ولا مفاهيمنا الحياتية ضمن هذه الحدود . ولاشك

في أن هناك عوامل دولية لها تأثيرها ، سلباً وايجاباً على الوحدة ، وعلينا أن نتحلى باليقظة القصوى في هذا المجال ، كي نستفيد إلى أبعد حَدّ من الظروف التي لها أحياناً كثيرة دور العامل الذاتي إلى جانب دور العامل الموضوعي ، وربما انبثق عن كل ذلك العامل الاجتماعي الذي هو مزيج موفق من العاملين الأولين ، كفيل بإيجاد النتائج المتناسقة دون شذوذ أو نشاز .

ميزة هذه القاعدة ـ المنطلق هي في جَعْلِ القوى الوحدوية في حالة جيشان مستمرّ ، وتزويد هذا الكيان الحركي بالوعي والإيمان والإصرار ، بالهدف الواضح الذي لا لبس فيه ، حتى تظالعنا هذه التغيرات الكمية بالتغير الكيفي النهائي الذي هو الوحدة العربية .

إننا نستبعد إذن وحدة البيروقراطيين والموظفين والتجار والمتسلطين ، ونعمل ـ انطلاقا من القاعدة الوحدوية الجماهيرية ـ كي تغدو الوحدة جماهيرية ، أي أن تكون الجماهير هي صاحبة المصلحة فيها . ولن تكتمل مصلحة الجماهير العربية إلا ضمن الجماهيرية العربية الواحدة .

هل هناك أساليب أخرى للوصول إلى الوحدة ، إننا لا نريد أن نُحَجِّرَ القوالب . ولا ندعي أننا أوجدنا الحلول الوحيدة . ولكننا نرى ـ من خلال مفاهيم الكتاب الأخضر ـ أن انعدام الأسس الجماهيرية سيجعل كل بناء سهل الانهيار . فاذا اتفقنا على ان الوحدة يجب أن تكون وحدة حياة وتحد لكل مراهنات الاستعمار والأمبريالية والرأسمالية ، وأعلى مراحلها جميعاً : الصهيونية ، ولكل ما يجره ذلك من تخلف ومن استعباد ومن استنزاف للثروات البشرية والطبيعية ، بل لكل ما ترمي اليه هذه المراهنات من القضاء المبرم على العرب ـ كعامل حُر فعال، وحتى كوجود ـ فلابد للجماهير ـ مستلهمةً مثال الجماهيرية الأولى في التاريخ والعالم ، فكراً وتطبيقاً ـ من أن تضع في يدها السلطة والثروة والسلاح ، فنؤمن بأن ما يقوم هو للبقاء .




# مَاذا أفهمُ بمقولَة :
# مَن تحزّبَ خَانَ !

لعلّ هذه المقولة قد حظيت باهتمام كبير ، ونقاش متزايد في أوساط شبابنا العربي بخاصة . فقد انطلقت الحزبية ، في بلادنا ، بزخم كبير ، أراد أن يقف على انقاض العائلية والقبلية والعشائرية وما إلى ذلك من تجمعات تقليدية . كان شباب الأربعينات يرمي بصدق وإخلاص وإيمان وتعصب أيضاً لأن يفعل شيئاً ، لأن يقيم الكيان العربي على أسس جديدة ، تعصف بالمألوف البالي الذي لم يثبت جدارته في الوصول بالأمة إلى غاياتها رغم وجود أحزاب لم ترتفع إلى هذا المستوى وتراوحت بين الاقليمية الضيقة والأممية الغائمة . وكانت الأحزاب في أشكالها الأوروبية الحديثة هي الراية التي حملناها ، والتي اندفعت وراءها

صفوفنا ، وبدأنا ـ من هنا ـ النضال الجديد الذي زعمناه مجدياً ، أو خُيل إلينا أنه الحل الوحيد ـ أنه الحل الذي جاءنا به القرن العشرون ومدنية القرن العشرين .

أنا سألخص رأيي بهذه الأحزاب ـ مع احترامي لكل ما تحوي من إيجابيات على جميع الأصعدة ـ بكلمة واحدة لطيفة أو بالأحرى : ملطفة ، ألا وهي الفشل . ولا أنكر أني أنا أيضاً ، كشباب جيلنا إذ ذاك ، كنت أرى شيئاً كثيراً من الأمل ببعض هذه الأحزاب ، ولم أكن أضيق ببعضها الآخر ، وكنت ـ وإن لم يجتذبني أي حزب إلى صفوفه طوال مسيرتي النضالية الفكرية والعملية ـ لا آلو جهداً في دعم الأحزاب التي بدا لي أنها تقدمية بمقدار ، أو اشتراكية بمقدار ، أو آخذة بنصيب من قيم العروبة الروحية والأخلاقية والجهادية .

كنا نعتقد ، أو كان يعتقد قسم لا نتجاهله منا ، أن الحزب هو الوسيلة الحديثة لبناء الدولة الحديثة ، الدولة المبدأية النظامية . وكانت القيم القومية والمثل الروحية

والأساليب الاشتراكية تسيطر أكثر ما تسيطر على تفكير جيلنا ، ولعلها كذلك في جميع الأجيال . وسأفسر كلمة «الفشل» القصيرة تفسيراً قصيراً يومئ إلى الحالة التي وصلت إليها الأمة العربية من تجزؤ وتقاطع وتخاذل واستخذاء . ولا أريد أن أناقش في كون الأحزاب هي التي أوصلتنا إلى ذاك أم لا ، لأني مقتنع اقتناعاً لا مزيد عليه أنّ عدم قدرتها على توعية الجماهير أو تحريك الجماهير كان وراء فشلنا . بالطبع ، نحن جميعاً ، نعرف أنّ هناك استعماراً ، أن هناك امبريالية ، أن هناك رأسمالية ، أن هناك صهيونية ، وأن حقد كل هذه الشياطين الحقيقية على المارد العربي الذي يمكن له ويجب عليه أن يحبسها في قماقم وأن يجنب البشرية شرورها ومآسيها ، هذا الحقد وجَدَ له مشجعاً ، وممهداً في مواقفنا جميعاً . والمسؤولية الأولى والأخطر على الأحزاب التي كانت قد استقطبت أعداداً لا بأس بها من شبابنا بالدرجة الأولى . بالطبع ، ليس موضوعي الآن أن أشرح مواقف الأحزاب ، وأن أناقش هذه المواقف وأخطاءها ، وإنْ كان من الخير أن أفعل أنا ،

أو يفعل غيري بجرأة واستنارة علميتين ، ولكن الشيء
الأكيد الذي يتجلى بكل وضوحه هو أن الجماهير في الأمة
العربية غير معبأة ، وأنها مُغَيبة عن الساحة ، لصالح
الحكم ، في جميع أشكاله ، ومن هذه الأشكال : الحزب
أو مجموعة الأحزاب .

لقد أراد الحكم - في شكل الحزب الذي هو موضوع
حديثنا - أن يكون نائباً عن الأمة ، عن الشعب ، عن
البلاد ، وذلك بحسن نية أو بسوء نية ، ولكنّ جهنم أيضاً
مزروعة بالنوايا الطيبة كما يقولون ، أو بكلمة أخرى :
إن النوايا الحسنة لا تغني شيئاً إذا كان صاحبها على خطأ
فالخطأ قائم رغم النية الحسنة ، وإن كان يبقى هناك مجال
للاصلاح عندما يتضح الصواب .

في مهرجان الفاتح الشعري لعام ١٩٨٠ ، ومن
طرابلس ، من الجماهيرية الأولى في التاريخ وفي العالم ،
أعلنت إيماني بمقولة : من تحزَب خان ، إذ قلت في
«القصيدة الخضراء» :

من قد تحزب خان! إني أرتضي
هذي المقولة قالباً أو جوهرا
ما كان حزبٌ نائباً عن ثورة
أو كانت الأمواج توجزُ أبحُرا
تبقى الجماهير الرشيدة وحدها
أبداً تقوم كل خَدٍّ صُعِّرا

وعندما قلت ذلك ، لم أكن أقصد بالطبع ، أي حزب بعينه ، أو أية جماعة بعينها ، لأني لو كنت أفعل ذلك لكنت شيئاً من السياسي التقليدي ، وإنما كنت المفكر العربي الذي يشعر بأنّ واجبه العلمي يقتضي عليه أن يصارح قومه ، جماهير أمته ، جماهير العالم ، وأن يحسن - ما أمكنه ذلك - عرض دوافعه وحوافزه لاعتناق هذه الفكرة أو تلك .

ولقد عقد بعض ممثلي الأحزاب ، أو المنتمين إلى الأحزاب ، أكثر من اجتماع ، في أكثر من مكان ، وتدارسوا هذا الموقف . وتحدث إلي في ذلك أكثر من صديق ومريد . وقد شرحت لهم مدلولات هذه المقولة ،

وأحقيتها ، وصحتها ، والألمعية التي قادت إليها ، ومدى
خطورة شأنها ، ومدى الفائدة العظمى التي تلحق بالثورة
العربية عندما تتحول الأحزاب العربية الثورية إلى لجان
ثورية ، أو يتحول أخلص من فيها ، وأوعى من فيها ،
إلى لجان ثورية تحرِّض الشعب لتسلم السلطة ، وممارسة
انسانيته كاملة في هذا المجال .

هناك حقيقة واقعية هي أن الانسان أراد دوماً على امتداد
تاريخ الانسانية ـ أن يتسلط ، وأن يمارس كل ما يمكن
ايصاله إلى هذه السلطة ولو على حساب كل المثل أو الكثير
من المثل والقيم . وينتج عن حافز السلطة مبدأ ، مهما
حاولنا تغليفه وتجميله وتنكير وجهه ، ليس هو غير
الدكتاتورية ، غير النيابة عن الشعب ، أي الانفصال عن
الجماهير . لقد جاهدت الرسالات السماوية ، في
حقيقتها ، من أجل انسانية الانسان . وعندما جاء في
القرآن الكريم تعبير : حزب الله ، كان ذلك دليلاً ومنذراً
للعالم الجديد أن لا يتحزب للسادة والرؤساء والملوك
ومن لف لفهم . وإذا عمل الاسلام على تجاوز القبليات

والتنابذ بالألقاب وتقسيم المجتمع شيعاً متخاصمين ، فقد كانت تلك منه دعوة صريحة في تلميحها إلى ضرورة قيام عصر الجماهير . فحزب الله هو كل هذه الجماهير المؤمنة بقيمها ومثلها ودورها ، وإسهامها الفعّال في الحياة وفي تخطيط الحياة . وهكذا كان التحزب في الرسالات العظمى ، داخل الرسالة العظمى ، شراً ؛ ولئن دعم متحزب رأيه بما يكون قد تحقق في ظل حزبية ما مثلاً ، فإن جوابنا أن الحكم ليس بمثل هذه البساطة ، بل هو مركّبٌ تركيباً جدلياً ، علمياً ، واقعياً . والرأسمالية الآن ننظر إليها على أنها شر ، على أنها شيطان ـ حسب التعابير العزيزة على الثورة الايرانية الاسلامية ـ ولكن الرأسمالية أيضاً كانت سبيلاً إلى الاشتراكية بأشكالها ومفاهيمها المختلفة . والامبريالية هي شر مطلق ، شيطان آخر ، هي أعلى مراحل الرأسمالية ؛ وأعلى مراحل الامبريالية هي الصهيونية ، ومع ذلك فإن وجود الامبريالية والصهيونية قد أجج روحية النضال ومعناه العميق ؛ ولو أننا استطعنا أن نضع الجماهير في مواجهة الامبريالية

والصهيونية لا نقلب ميزان القوى في العالم ، ولتجنبنا ـ في وطننا العربي ـ هذه النكبات والنكسات ، وما هنالك من تسميات اخترعناها لكل فشل أصابنا ، أو أنزلناه بأنفسنا ؛ ولكان هذا الفشل من نصيب الامبريالية والصهيونية . ولا شك عندي في أن الأحزاب بكل منطلقاتها المادية والروحية ، لو نفذت إلى الطاقة الروحية والمادية العظيمة التي لدى اللجان الثورية لكانت وضَعت الأمة العربية الآن في عصر الجماهير ، ولما كانت ليبيا هي الجماهيرية ـ المنارة الوحيدة وسط شقيقاتها ووسط العالم .

إنه أبدا صراع السلطة في ظل الأحزاب ، ويبقى الشعب بعيداً غريباً . وتبقى مشاكل الاحتفاظ بالسلطة ، بل احتكارُها دون هذه الفئة أو تلك ، ودون هذا الفرد أو ذاك ، وتستمر مهزلة الصراع على السلطة ، والشعب مغيب ، إلا ما كان من مظاهرات غير صحيحة الهدف دائماً ، وغير واضحة الهدف دائماً ، تُقمعُ بأساليب مختلفة ، عنيفة أو مسالمة وهي في نهاية الأمر أساليب قمعية معادية للجماهير ومصالحها ، مدمرة لكرامتها ، محطمة

لوعيها ، أو موجهة له في وجهة مزيفة مزورة .

وليس هذا فقط بل أن الجمهرة التي تؤلف حزباً ما تبقى هي الأخرى بعيدة عن ممارسة الديمقراطية ، عن ممارسة السلطة ، لأن قيادة الحزب هي التي تستأثر عملياً بكل شيء ، ثم ـ عندما يصبح الدرب ممهداً ـ يقفز رئيس الحزب ومعه طغمة قد لا تمت في جوهرها إلى حقيقة الحزب ومبادئه ، فتلغي دور الحزب والقيادة ـ كي يبقى دور الفرد الحاكم باسم الحزب الحاكم بدوره باسم الشعب ـ وهي نيابات صورية ، وتدجيل وقح أحياناً كثيرة ، ويظل الشعب ، في كل الحالات ، مغيباً ، مفتقداً ، بل يبقى الحزب في أغلب الحالات مغيباً ، مفتقداً ، ولا تبقى إلا سلطة الطغمة المتحكمة . وإلى ذلك أشار بعلمية مستنيرة ، الفصل الأول من الكتاب الأخضر إذ جاء فيه : «إن الحزبية أداة دكتاتورية ولكن عصرية . إن الحزبية دكتاتورية صريحة وليست مُقَنَّعة ، إلا أن العالم لم يتجاوزها بعد ، فهي حقاً دكتاتورية العصر الحديث» .

ان قاعدة الحزب ، إن هي لم تتحول الى أداة في يد
الرئيس وطغمته ، مورس عليها القمع والتغييب هي
الاخرى ، ويصبح مجرد تمسكها بالحزب إما طمعا في أن
ينالها شيء من المغانم ، أو أن تتربص طغمة أخرى من
داخل الحزب كي تعصف بالطغمة الاولى وتحل محلها ،
وتقرِّب بعيدا ، وتبعد قريباً ، إن لم تعمد الى التصفية
الجسدية في شتى أشكالها . وإمّا يكون مجرد تمسكها
بالحزب نوعاً عصرياً من أنواع الولاء للعشيرة أو القبيلة أو
الشيخ أو الرئيس كما في الماضي ، أي مجرد ولاء أعمى
متعصب هو نتيجة لاوضاع اجتماعية معينة ، وشروط
بيئوية وحياتية محددة . وهكذا جاءت مقولة صاحب
النظرية : «الحزب هو قبيلة العصر الحديث . . هو
الطائفة . إن المجتمع الذي يحكمه حزب واحد هو تماما
مثل المجتمع الذي تحكمه قبيلة واحدة أو طائفة واحدة»
«لا فرق بين الحزب أو القبيلة إلا رابطة الدم والتي ربما
وجدت عند منشأ الحزب . إن الصراع الحزبي على
السلطة لا فرق بينه اطلاقا وبين الصراع القبلي والطائفي

ذاته . واذا كان النظام القبلي والطائفي مرفوضاً ومستهجناً سياسياً فيجب ان يرفض ويستهجن النظام الحزبي أيضا . فكلاهما يسلك مسلكا واحدا ، ويؤدي الى نتيجة واحدة ، ان التأثير السلبي والمدمر للصراع القبلي أو الطائفي في المجتمع هو نفس التأثير السلبي والمدمر للصراع الحزبي في المجتمع»

ففي اليمن القديمة ، وفي مكة ـ ما قبل الاسلام ـ كان هناك «الملأ» هذا التجمع الذي يضم الرؤساء والاعيان من الافخاذ الهامة ، ويتخذ المقررات الشاملة ـ إنه نوع من البرلمان الحديث ، ولكن أفراد القبيلة أو القبائل كانوا مغيبين ، لم يكونوا يمارسون السلطة وإن كانت هناك حرية اكبر في المناقشة والاعتراض والاحتجاج بحكم الواقع والبيئة والتركيب القبلي .

وفي الحجاز القديم لم تكن هناك حكومة منظمة أو ملوك بل ثمة قبائل منقسمة الى بطون وأفخاذ وعشائر تؤلف ما بينها رابطة الدم . ولكل قبيلة شيخ هو صاحب السلطة ، وللقبيلة أعراف وتقاليد ومفاهيم هي قوة تثبت

وجودها وفاعليتها حتى في المجتمعات المستقرة المتقدمة .

ولقد لعبت المصالح الاقتصادية والاجتماعية دورها وأسهمت الاسواق التجارية ، والنفوذ التجاري ، بتجاوز الكيان القبلي . كان البدو قد أخذوا يجدون لدى التجار الاغنياء في المدن ما يجتذبهم او ما يحتاجون اليه ، وكانوا يستدينون منهم . وهكذا تقوم علاقة جديدة اقتصادية واجتماعية تتجاوز وحدة الدم ، والقبيلة ، الى وحدة المصلحة والحاجة ، وكان من الطبيعي والبديهي ان تنبثق عن ذلك قيم جديدة .

يتبين لنا من خلال هذه الصورة الوجيزة ان هناك تشابها كبيرا بين القبيلة والحزب ، وبين ما كانت تلجأ اليه القبيلة احيانا وما قد يلجأ اليه الحزب . فكلاهما قائم على نوع من الوحدة ـ ربما كانت وحدة الدم في المنطلق ، ثم اتسعت فشملت وحدة المصالح ، وكلاهما له رئيس مطلق الصلاحية ، وربما احتاج الى أن يجمع الملأ أي المجلس النيابي أو مجلس الحزب ، وكل ذلك في غياب الشعب .

إن الجماهير لا يمكن لها أن تنيب حزباً أو أحزاباً عنها ، بل لابد لها هي نفسها من ممارسة السلطة المباشرة ، وفي هذه الحالة تكون الاحزاب ـ في أرقى صورها وأكثرها تجددا وصفاء وايمانا بالجماهير ، هي اللجان الثورية ، في فترة ما قبل الجماهيرية ، وربما استطاع مجتمع تتعدد فيه الاحزاب الوطنية الشعبية أن يتوصل الى العهد الجماهيري دون حاجة الى لجان ثورية اذا استطاعت الاحزاب التي ذكرنا أن تقوم مقام اللجان الثورية بمفهومها الجماهيري .

اذن ، شعار : «من تحزب خان» يجب ان لا يأخذ به الحزبيون في وطننا العربي ـ كي أحصر كلامي في نطاق قومي ـ على أنه دمغ لهم بالخيانة ، وأنهم قد أصبحوا جميعا خونة كبائعي اوطانهم . ان بينهم الثوار حقا ، والانقياء حقاً ، وثمة أحزاب تحمل بذور الخير في الشعارات والمبادىء ولكن صراع السلطة والمصلحة الذاتية يصبحان البديل لكل صراع حتى تغدو السلطة والمصلحة الهدف الاساسي ، بكل ما يمكن أن يعني ذلك من مآس تلحق بالانسان وفكر الانسان .

ولنضع في محور وعينا وفهمنا ورؤ يتنا الواضحة أن الحزبي يتعصب لحزبه كما العشائري لعشيرته . فالعشائري يتبع رئيس عشيرته أو وجيهها أو مقدمها دون الاهتمام بمؤهلاته الاخلاقية والثقافية والوطنية ، بل هو لا يكلف نفسه عناء هذا التفكير ، بل هو احيانا غير قادر على مثل هذا التفكير ، أو أن بيئته العشائرية لا تسمح له وإن هو حاول . وهو اذ يختار ـ ولو صوريا ـ فهو يختار ايا كان من عشيرته ضد أي كان من عشيرة أخرى ، ولو كان هذا الاخير أفضل من صاحبه ألف مرة ، وما ذلك الا لانه ليس حرا في اختياره . والحزبية ليست أفضل في هذا المجال ولو نظرنا الى قيادات ونواب احزاب كثيرة لراعنا السقوط في شخصيات هذه القيادات ، وهو سقوط متعدد الجوانب من ثقافي ، الى اخلاقي ، الى وطني . . . وهكذا يظل الحزب الواجهة التزييفية الصغيرة ، مثلما يظل الشعب الواجهة التزييفية الكبيرة . .

ان الجماهير ـ في المجتمع الجماهيري ـ هي البنيان المرصوص في حركته المستمرة . الجماهير بنيان مرصوص

ولكنه دائب الحركة والغليان ، فمن أراد تحزباً أو خلخلة في هذا البنيان اراد تفكيكا لوحدته ـ وبالتالي اراد قضاء على جيشانه الداخلي الكفيل بفرز الخبث والتآكل ، وتحويلا لكل ذلك الى صراع مدمر للحيوية الداخلية القادرة على التجديد في سبيل الحياة . أفليس مثل هذا العمل خيانة وخيانة موصوفة ! ومن تحزب في مجتمع غير جماهيري عليه أن يعتبر نفسه خلية ثورية في جسم الامة تعمل على تماسك وتنشيط سائر الخلايا دون أن تغدو خلية سرطانية تتنامى على حساب الخلايا الاخرى حتى تصرعها .

هنا ، يمكن أن يطرح سؤال يتلخص في أن ثمة افكارا وآراء ومبادىء تصطرع في المجتمع وفي الانسان ، والاحزاب تمثل ألوانا من هذه الافكار المتصارعة ـ وباعتبار كل حزب يعتقد الخير ، كل الخير ، في مبادئه ، فلا بد له من أن يناضل في سبيل انتصارها محاولا تعميمها على الجماهير كافة .

والحق أن الحياة ميدان صراع دائم . ولا يعتقد أحد أننا

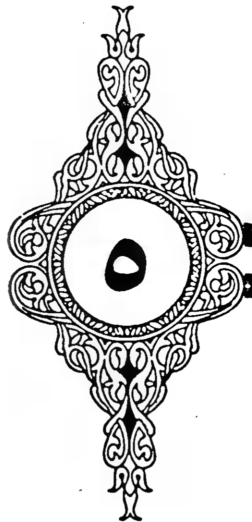
سننتهي من هذا الصراع الا بانتهاء الـدنيا نفسهـا . فلا
يمكن القول إن بانتصار حزب ما انتصارا للتصور الافضل
والتطبيق الامثل ، كما أننا لا نقول بأن الجماهـير ـ حتى
عندما تتسلم بيدهـا السلطـة والثـروة والسـلاح ـ سوف
تعيش كبنيان مرصوص ـ سكونـي ، بل لا بد لهـا ـ كي
تبقى هي ذاتها ـ من أن تظل بنيانا مرصوصـا ـ حركيا .
امور كثيرة ستتغير ، أهمها أن تغدو الجماهير حرة ، مالكة
لشؤ ونها حقاً ، ولكن لابد من التفاعل الحركي المستديم
ليس فقط لمزيد من التقدم والسعادة والكرامة والانسـانية
بل للحفاظ على ما تم من كل ذلك . لقـد اتخـذت ثورة
الفاتح في الظاهر ، شكلا من أشكال الحزب القائد وذلك
بقيام الاتحاد الاشتراكي العربي في ١١ / ٦ / ١٩٧١ م ،
وعلينا أن لا ننظر الى ذلك بمعزل عن الظروف والشروط
القائمة آنذاك ، وعلينا ان لانغفل عن ان قائد الثورة لم
يكن قد أصبح جماهيريا أي لـم تكن النظرية قد تكاملت
لديه ، ولـم يتناقض قيام الاتحاد الاشتراكي العربـي ـ في
الفترة المرحلية المحددة ـ مع ايمـان قائـد الثـورة وتـأكيده

للعالم «ان هناك ثورة شعبية عارمة تقودها الجماهير في ليبيا المناضلة» بل كان قوله هذا يحمل بذرة النظرية الجماهيرية . ولقد كان يحق لنا ان نعتبر صيحة مثل «فَلْتَعلُ كلمة الشعب ، سيد الجميع» في سياق ما خدر به أصحاب الانقلابات شعوبهم ، لو لم يفجر قائد الفاتح الثورة الشعبية في ١٦ / ٤ / ١٩٧٣ ، ثم تكوين المؤتمرات الشعبية الاساسية في ٣ / ٤ / ١٩٧٥ ، ثم اعلان سلطة الشعب في ٢ مارس ١٩٧٧ ، وفي هذا درس جليل للاحزاب الثورية العربية النظيفة ، ونموذج وقدوة ودعوة .

الحديث يطول ، ولكن مهما اطلنا فسيكون ذلك في حدود الاثبات العلمي لصحة مقولة : من تحزب خان ، في عصرنا هذا ، العصر الزاحف الى سلطته وسلاحه وثروته ، عصر الجماهير ، تماما كما ألفت الكتب ، وقام العلماء والفقهاء والمحدثون والداعون لاثبات صحة رسالة نبوية ودعوتها . وهذا لا ينفي اطلاقاً الايمان بالسليقة ، وهو من أصدق مراتب الايمان وأثبتها . وليس

كل ما نقوم به من دراسات الا لتقريب أفكار واثبات صحتها ، واعطائها ابعادها الفكرية والفلسفية والتطبيقية ، ودعوة الناس اليها لصالحهم هم قبل غيرهم ، أو لصالح غيرهم قبلهم هم ، سيان عندما يغدو الانسان هو الجماهير مصغرا ، وعندما تغدو الجماهير هي الانسان مكبراً .

لقد اجتهد الباحثون من أجل اثبات صحة معتقد ديني ما ، ورب من أخذ به ، وحمله مشعل هدى في دنياه وآخرته ، دونما حاجة منه لتلك الشروح والبحوث ، ولكننا مع ذلك ، نؤثر أن يمتزج ايمان السليقة بايمان المعرفة ، وهذا ما طمح اليه صاحب الكتاب الاخضر .




# الشعبُ المُسَلّح

وهكذا ، إذا كنا مَهَّدنا العذر للحزبية ضمن ظروف معينة محدّدة ، فإن دور الحزبية لم يعد ذا موضوع بعد انطلاق عصر الجماهير وما من شك عندي في أن الصراعات الحزبية ، وما تفرز من أمراض ومطامع ، وما توقظ من شهوات كامنة في الكيان الانساني ، قد فوتت علينا انتصارات كثيرة ، وأججت مطامع غريبة عن الجماهير ، وكانت عائقاً للتقدم الاجتماعي الحقيقي ، ولقيام الوحدة العربية الشاملة ذات المضمون التحرري ، التقدمي ، الشعبي ، الاشتراكي .

إن قائد الثورة ، صاحب مقولة : من تحزَّب خان ، هو

الذي يدعم الأحزاب ذات المبادىء أو المواقف التقدمية
التحررية ، الوحدوية ، وذلك منه ممارسة لدور القائد
الثوري ، لدور اللجان الثورية التي تحرض دوماً قوى
الخير في الكيان ، حتى تستطيع التغلب على عناصر
الفناء . إنّ أفضل ما في هذه الأحزاب لا بد له من أن
ينقلب في فكره وممارسته إلى لجنة أو لجان ثورية . وكلما
كان الفردُ مؤمناً كان إقناعه عملية أسهل . والايمان
نقيض التعصب ، بل عندي أن الايمان نقيض التعصب
أكثر مما هو نقيض الالحاد ، لأن التعصب هو رؤية للحق
ثم عدول عنه ، هو رؤية شرار عشيرتنا أو حزبنا خيار قوم
آخرين . فلا يمكن في الحكم الحزبي أن ينظر المرء نظرة
مجرَّدة عن الهوى ، نظرة عقل ووجدان لأية قضية أو لأي
شخص . بل لا يمكن للحكم الحزبي أن يزن أعضاءه
أنفسهم إلا بميزان السلطة ، أي بمقدار ما يمكن أن يؤمنوا
لرجال الحكم الحقيقيين من سلطة . وهذه نظرة خطرة ،
رهيبة ، مدمرة ليس فقط للديموقراطية بل لكرامة
الانسان ، وقيمة الانسان ، لانسانية الحياة ذاتها .

ولا شك في أنّ مثل هذه النظـرة تقتضي احتقـار وازدراء وعزل كل القوى الفكرية والروحية والمادية التي لا تتبـع الحكم أو لا تضع نفسها في خدمته أو لا تنقلب إلى طبالين وزمّارين إلى آخر ما هنـالك . وهـكذا تضيع عبقـريات كثيرة ، ربما العبقريات الحقيقية ، فهي إما أن تنزوي ، وتجمـد ، وتنعـزل ، وتتـوقف عن العطـاء ، وإمـا أن تهاجر ، وما شابه ذلك . .

ولا شك في أنّ الأمة العربية على أبواب القرن الحادي والعشرين ـ ما زالت تعانـي أمراضهـا وهـي على أبـواب القـرن العشرين . بل أكاد أرى فارقـاً لمصلحـة العهـود الماضية . فقد كان هناك الأمل وكانت هناك الحماسة ، في حين أن خيبات الأمل التي سببتها مختلف الأنظمة ، أي مختلف أنواع الحكم ، بما فيها حكم الأحزاب ، قد قتلت الأمل وقـد بدّدت الحماسـة ، وأصبـح يهيمـن على الجـو الشعبي ـ في حالته السـكونية ـ مفهـوم خَطـر هو مفهـوم اللامبـالاة . فما دامـت أشـكال الحـكم بمـا فيهـا حكم الأحزاب قد وضعت الشعـب على الـرف فإنّ رد الفعـل

الأضعف هو وضع أنظمة الحكم على الرفّ ، أي تجاهلها . وهذا بالضبط ما تريده أنظمة الحكم : أن تجعل الشعب في حالته السكونية ، في حالة العطالة ، كي تفكر عنه ، وتعمل عنه ، وتستولي على سلطته وسلاحه وثروته ، وهذا ما تفعله بشكل متميز حقاً .

ولقد جاء في محادثات الوحدة بين سوريا ومصر بعد الانفصال ، حديث بحضور الرئيس جمال عبد الناصر . وكان صاحب الحديث أحد ممثلي الجانب السوري ، وهو من العسكريين الرفيعي الرتبة العسكرية ، إذ قال إن لم يكن حرفياً فبما مؤداه : إنك يا سيادة الرئيس لو سألت عن أكبر حزب في سوريا الآن لقيل لك : إنه حزب «يصْطِفْلُو» . ولا أهمية لان تكون «يصطفلو» هذه اصطلاحاً محدوداً بمكان أو كلمة دارجة ذات أساس لُغوي حرَّفوه وجعلوا معناها : «لا يهمني الأمر أو لا علاقة لي بالموضوع» . المهم أنه كان هناك حزب أطلق عليه الناس اسم حزب «يصْطِفْلُو» ، تعبيراً عن حالة نفسية واجتماعية

معينة ، وجعلوا له زعيماً كان اسمه «أبو حسن الحموي» .

موقف الاصطفال ، موقف اللامبالاة هذا هو ما ترحب
به أنظمة الحكم للحفاظ على تسلطها . وهو الذي جعل
فلسطين تغدو ، واقعياً ، اسرائيل بعد خمسة وأربعين عاماً
من المعارك المستمرة ، وبعد أن توالى على الأنظمة العربية
أمراء وملوك وشيوخ ورؤساء ومشيرون وألوية ، وبعد
أن مورس الحكم النيابي ، والحكم الحزبي ، وحكم
الفرد ، والملكيات النيابية ، والملكيات الثيوقراطية ،
والمشيخات النيابية ، الخ . .

كان الشاعر العربي الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم
محمود الذي استشهد عام ١٩٣٦ في معركة الشجرة ، قد
ألقى قصيدة بحضور الأمير سعود آنذاك (الملك سعود فيما
بعد) جاء فيها :

المسجد الأقصى أجئتَ تزوره
أم جئت من قبل الضياع تودِّعُهْ

وكان ذلك من الشاعر الشهيد نوعاً من التنبؤ الذي
هو ميزة الشعر العظيم ، والنضال الصادق ، والاخلاص
الفائق . ونحن نشاهد الآن زحف الصهيونية بشراسة
وإصرار ودهاء ومناورات وقسوة وشتى مظاهر
التناقضات ، ولكنّ هدفها واضح : تحقيق الامتداد
الحيوي الضروري لها ، فهي لن تكتفي بفلسطين ، وهي
تخطط مع الامبريالية العالمية لعشرات السنين ، وتخطط إلى
ما بعد نفاد البترول العربي - أو أي كارثة أخرى تحل
به -، وستكون هي يومذاك الدولة الكبيرة بطاقتها العلمية
والصناعية (فهي امتداد لصناعة أميركا والغرب وتطوير
لهما) وطاقتها العسكرية (وهي تملك الذرة وتملك أحدث
الأسلحة ، وكوادر كفؤة لتشغيلها بدقة) وغير ذلك ، بينما
اعتمادها أن يزداد العرب تجزؤاً وتخاذلاً وضعفاً ، وأن تقوم
الخلافات والنزاعات والصراعات فيما بينهم ، وأن يعودوا
إلى التفاني كما في أيام حرب البسوس بين بكر وتغلب . أو
حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وعند ذلك
ستبدو لنا ضروب البطولات وألوان الفروسية في مجابهة

الشقيق للشقيق . واسرائيل تأمل أيضاً أن تزداد خيبة المثقفين العرب فهم يصمتون أو يهاجرون ويندمجون في محيطاتهم الجديدة ، ويسهمون في بناء القوة التي سوف تسهم إسهاماً مرموقاً في توجيه الضربات المتلاحقة أو الضربة القاضية إلى أمتهم العربية في جميع أجزائها ، وبحق قال قائد الثورة : «ربما كانت ثرواتنا النفطية هي التي مكنت شعوبا مثل الشعب الأميركي من غزو القمر» .

مصير العرب نقرأه كما في كتاب مفتوح إذا واصلت دنيا العرب ما هي عليه حتى الآن . ونقرأه كما في كتاب مفتوح إذا هبَّتْ دنيا العرب فغَيرت ما هي عليه حتى الآن . منعطفان حادان : أحدهما في انحدار والآخر في صعود . إما أن يواصل الوضع العربي تركيبه النفسي والاجتماعي الحالي فيواصل انهياره وانهزامه في وجه الحياة ، في وجه الوجود ، ولن تنفعه المفاعلات الذرية التي تبنى لأنّ تحطيمها وهي نواة بعد ، مخطط له سلفاً ووسط أقل ما يمكن من الضجيج وأكثر ما يمكن من دقة التنفيذ

وهمجيته . وإما أن يتغير هذا الوضع المتردي . والجماهير هي وحدها الكفيلة بذلك ، على أن تنتصب إلى جانبها اللجان الثورية المبشرة بالحضارة الجديدة .

لماذا تنتصر اسرائيل علينا في كل معركة ؟ وكان من المفروض ومن المنطقي ومن الواقعي أن تتكفل بدحرها دولة واحدة من دول المواجهة . هناك دولتان من هذه الدول ، على الأقل ، من أولى واجباتهما أن تتمكنا من تأدية هذه المهمة ، ولكنّ هذا شيء لم يكن . وسأكتفي الآن بالقول أنّ علينا لجعل هذا ممكناً ـ بل لا مجال للامكان إلا بهذه الطريقة ـ أن تمتلك الجماهير ـ وهي الشعب في حالته الحركية ـ السلطة والثروة والسلاح . إسرائيل تحاربنا على هذا الأساس وتنتصر . لا أريد بذلك أن أقدم مجتمع اسرائيل على أنه المجتمع المنشود . هذا بعيد عن الحقيقة . بل هو نموذج المجتمع الاستغلالي ، العنصري ، الحاقد على البشرية ، المدمر للقيم الانسانية في سبيل خدمة فكرة مدمرة ، عبر التاريخ وفي هذا العصر . ولا شك عندي في أنه سيدمر نفسه أيضاً في نهاية

الأمر ، ولكنه الآن منصرف إلى استغلال غيره ، وتدمير غيره ، السلطة لديه نيابية وحزبية ولكنّ لها هدفاً أولياً وحيداً الآن هو تدمير العرب والاستيلاء على أراضيهم وثرواتهم ، ووضعها في يد الامبريالية أو في يد أعلى مراحلها ألا وهي الصهيونية . وهناك صراع داخلي ولكنه يتخذ صبغة التباري في سحق عدو مخيف ، رهيب ، أو صوَّروه مخيفاً ، رهيباً يريد أن يركل اسرائيل إلى قاع البحر . فالأحزاب الحاكمة تجنب نفسها بعض مشاكل الحزبية ، وبعض مشاكل الابتعاد عن الجماهير ، بافتعالها دوماً هذه الحالة المتأزمة غير الطبيعية . فلديها ، بذلك ، أداة شبه سحرية ، تمدُّ في أجلها ، وتؤخر الانفجار الداخلي المرتقب دوماً . إن تلك الحدة في الصراع الداخلي تتخذ متنفساً لها في الحقد على العرب ، والتخطيط لابادتهم ، بشتى الأساليب (من إبادة جسدية ومعنوية ، وتجزئات اقليمية ، بل عرقية ولغوية ، وتهديم التراث الثقافي والروحي ، وعدم تجاهل أو تناسي أي شيء يسهم في إبادة العرب مهما بدا صغيراً ولم نلق إليه بالاً ، وتركناه

يمرّ بكل بساطة) والعمل ، دون ابطاء على تنفيذ ذلك .

والثروة - رغم الفساد المستشري في اسرائيل - نراها موجهة أيضاً ضد هذا العدو العربي الذي يملك ثروة أكبر وطاقات أكبر ، ولكنها في يد الحكومات ، لم تتوجه التوجه الصحيح ، فهي ملك فئات تهدرها لمصالحها ومتارفها ، وتوظفها لدى المستعمرين الامبرياليين كي يحموهم من أصحاب الثروة المسروقة الذين هم الجماهير . والمستعمرون الامبرياليون يحسنون استغلال هذه الفرص فيمدون في حبل الغواية لهؤلاء الحكام ، ويحُكِمون حولهم الطوق الامبريالي الاستنزافي ، وليس غريباً أو مستبعداً أن نرى هؤلاء الامبرياليين يُلَوِّحُون لأعداء شعوبهم بهذه الشعوب من أجل مزيد من الاستنزاف ومزيد من الاستعباد . بل أن المستعمرين الامبرياليين يشترون زعماءً وحكاماً آخرين بأموال هؤلاء الأغنياء - أعداء الشعوب ، فيغدو أولئك الفقراء - أعداء الشعوب ، أغنياء - أعداء الشعوب ، وتقوم هناك بطانة فاسدة همها تكديس المساعدات الخارجية والثروات

الداخلية لحسابها في الخارج ، وبالتالي تعود الثروة العربية إلى أعداء العرب . إذن إسرائيل ، رغم فسادها ، ورغم نظامها الاستغلالي استطاعت أن توظف ثروتها ـ في جميع أشكالها الخارجية والداخلية ـ لتأدية وظيفة اجرامية همها أن يُقْتَلَ العرب ، كما قال الشاعر العربي القديم :

فمن يكن سائلاً عن سِرِّ دِينِهِمُ
فإن دينهُمُ أن يُقْتَلَ العَرَبُ

وهكذا لعبت الثروة لدى اسرائيل ـ في هذا المجال فقط ، مجال الانتصار ومجال القوة العسكرية الفائقة ـ ما تلعبه هذه الثروة من دور وهي في يد الجماهير . وأعيد فأؤكد على المجال الذي ذكرت .

أما السلاح الذي يجب أن يكون أيضاً ملكاً للجماهير ـ أي أن ينتفي دور الجيوش التقليدية ـ فلا بد من أن أشير إلى أن الجيوش التقليدية لا بد لها في نهاية المطاف ، وفي أوله ، من أن تلعب نفس الدور وأحياناً شراً من الدور الذي يلعبه العدو . فعلاوة على أنها في الأساس عبارة عن

فئة مأجورة لأداء عمل ، فإنها بعد ذلك تطمع في أ
تمتلك ـ أو يمتلك قادتها السلطة والثروة والسلاح
ويمارسوا على الشعب الدكتاتورية والارهاب والافقا
والاقفار معاً ـ وهاتان الكلمتان متقاربتان لفظاً
متواكبتان في مسيرة البؤس الانساني .

إذا كان الأمر يتعلق بالدفاع عن الوطن فعلى كل قادر
من امرأة ورجل ، أن يؤدي دوره في هذا المجال دون أ
يتقاضى راتباً على ذلك ، أو دون أن يكلف عنه من يذهب
ويقاتل ويموت أو ينكسر أو ينتصر عنه . إنّ وجود الجيش
التقليدي في أمة تبحث عن مكانها في الحياة معوّقٌ لها
وربما حاجز منيع دون وصولها إلى هذا المكان . ذلك لأن
المشاكل التي يثيرها الجيش التقليدي ذات علاقة وثيقة
بالمشاكل التي يثيرها المستعمرون والامبرياليون . أولئك
لديهم جيوش تقليدية ، مرتزقة لأنهم قد بنوا مجتمع
الاستغلال والاستنزاف عبر تاريخ إجرامي طويل . وهو
موجه لانجاز دور ، ولا يمكن للأمم التي تعيد بناء نفسها
وتاريخها أن تركن إلى جيش تقليدي في التصدي لتلك

الجيوش الامبريالية العدوانية . ولدينا في العالم الثالث الدليل على ذلك . وهذا واضح . ولا يلقي التوسع في ذكره مزيداً من الوضوح

لا بد إذن من الشعب المسلح . والشعب المسلح لا يعني التجنيد الاجباري كما أن المؤتمرات الشعبية لا تعني الانتخابات ، وكما أن مؤتمر الشعب العام لا يعني المجلس النيابي ، وكما أن اللجان الشعبية لا تعني الأحزاب كما يزعم بعض المشوّهين المغرضين ، أو بعض الجاهلين حقاً بمضمون هذه المؤسسات الجديدة كلياً .

الشعب المسلح هو أن يصبح الشعب بأسره ، رجالاً ونساء ، كهولاً وشباباً ، قادراً على ممارسة القتال ، براً وجواً وبحراً ، ضد عدوه ، مشبعاً بالمبادىء الانسانية والأفكار الجماهيرية ، وهو إذ يكون صاحب السلاح - فليس لكي يوجهه ضد نفسه ، لأنه هو صاحب المصلحة الحقيقية في كل شيء : في الوطن الذي هو أرض وحضارة

وتـاريخ وقيم روحية وثـروات مادية ، وتقــدم وكرامــة وسعادة .

السلاح يوجه ضد شيء ، ضد شخص ، ضد زمرة كي تُسْتَنْقَذَ منها السلطة والثروة . أما والسلطـة والثـروة بيد الجماهير ، فإن السلاح في يدها لن يكون إلا عنوان القوة الانسانية ، القوة الجماهيرية . وهي القوة التي لا تطغـى على شعبها لأنها هي الشعب ، ولا تطغـى على الشعـوب الأخرى ، لأنها غير ذات مصلحة في هذا الطغيان . ولكنْ إذا سوّلتْ لأية قوة مسلحة ، نفسها أن تطغى على القـوة الجماهـيرية فإن هذه القــوة تكون جاهــزة لسحقهــا وتدميرها ، من جهة ، ولمساعدة الجماهير المسحوقة عنـد ذاك ، للدخــول في العصر الجماهــيري ، أي لبنــاء جماهيريتها أو جماهيرياتها .

من هنا كان رفع شعار : الشعب المسلح ، بعيداً وغريباً عن حب الدمــار ، وعــن الشـغف المرضي بالحــرب والتقتيل ، وعن الاستيلاء على حقوق الآخرين . بل ان الشعب المسلح ضمن شروط الامبـريالية العـدوانية ـ هو

أمل الانسانية في تحررها ، وفي استعادة الانسان لكرامته ، وفي القضاء بعد ذلك على السلاح ، كعامل إفناء ، لأن قيام الشعوب المسلحة هو الطريقة الوحيدة لوضع حد لسباق التسلح إذ لعلَّ الشعوب في مستقبل غير بعيد تجد نفسها غير محتاجة لهذا التباري عندما ينتصر عصرها ، عصر الجماهير . وهذا ما يجب أن يحفزها على مزيد من الاستيقاظ المبكر على تعاليم الكتاب الأخضر لأنها السبيل الوحيد ـ كما قلت ـ للقضاء على الأسلحة ، الشر الأعظم الذي يهدد كل مدنيتنا ، بكل نظرياتها وجماهيرها .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن قيام الشعب المسلح في كل بلد لهو من صميم الوعي الجماهيري ، ونهوض الجماهير بسحق العالم الرجعي ، المتخلف ، الدكتاتوري ، الذي غمر الدنيا ، على امتداد التاريخ ، بمآسيه ، وبخداعه وتضليله ، كما جرَّد الانسانية أو حاول تجريدها من ذلك الحس الدقيق الذي يقودها ـ رغم كل

التزوير والتشويه ـ باتجاه العلم الأخضر ، علم انسانية الجماهير ، علم انسانية العالم .

أما بالنسبة لقضايانا العربية بما فيها القضية الفلسطينية فإني مقتنع بأنه لا تحرير ولا وحدة ولا تحرر ولا تقدم ـ كما تريد جماهير الأمة ، هذه الجماهير الصحيحة الانسانية ، إلا بقيام الشعب المسلح ، حسب ما يمليه الفكر الجماهيري ، بشكل متكامل جذري ، وليس بحلول سطحية ديماغوجية ستؤدي ـ كما أدت دوماً ـ إلى الهزيمة .




# وَيَسألونَك
# عَنِ الأدَبِ الجَماهيريّ

سمعت من يتحدث بأنَّه يكتب للجماهير ، ومن يخبرنا بأنَّ الكتابة الأجدى هي المتوجهة للجماهير ؛ وشهدنا منازلات أدبيةً تدور حول الكتابة ، وهل الفن للفن ـ وما وراء هذا الشعار من مدارس متباينة الفكر والذوق ـ أم الفن للناس ـ وما وراء ذلك مِنْ ائتلاف واختلاف . ورأيت من يفتخر بأنه عقد دراسات حول الأدب الجماهيري وأنه دعا إليه . وحضرتُ ملتقيات شعرية كان شعراؤها ـ أو بعض منهم ـ يعتقدون أن الشتيمة وأن البذاءة في التعبير ، وأنَّ الشذوذ في المظهر وفي الإلقاء ، وأن الضعف في اللغة ، والجهل بالعروض أي بالموسيقى الشعرية ، كل هذا جواز ، إلى الأدب الجماهيري ، وكفى

الله المؤمنين القتال . وسمعْتُ محاضراً يزعم بأنه هو الذي أبدع تعبير الأدب الجماهيري . ولن أذهب أبعد من ذلك في الاستقصاء ، فما أردته . وإنما أردْتُ من خلال كل ذلك أني أعتقد بأنَّ الأدب الجماهيري غير ما ذكروا وأنه شيء متكامل ، قائم بذاته .

إنَّ الأفكار الانسانية تتداخل ، تلتقي عند نقطة أو نقاط ، ثم تفترق وتتشعب حتى يخيل الينا أنه لم يكن هناك التقاء . ولذلك أيضاً يختلط الأمر على بعض الناس ، فهم يجدون أحياناً قربى في التعبير ، وأحياناً قربى في مجمل الأمر ، أو بعض تفاصيله فيعتقدون أن ثمة إذن قربى كاملة . وقد يتفق مخلوقان في كثير من الصفات الانسانية ولكنهما ، مع ذلك ، لَيْسا لأب واحد ، وما تسلسلا من نسب واحد ، ولئن زعم أبو تمام من خلال قوله :

إن يختلف نسب يؤلف بيننا
أدب أقمناه مقام الوالد

أو أراد منه أننا لا نختلف في الأدب ، فقد أخطأ خطأ بيّنا ، وإن كانت دعوته إلى الاتفاق حميدة مشكورة . بيد أن الصحيح هو أننا اختلفنا في الأدب ، كما اختلفنا في النسب ، وراح كثير منا يقيمون مدارس لهذا الأدب ، وأشباه مدارس ، ولا مدارس ، وأصبحوا يركزون على الشكل حيناً ، والمضمون حيناً ، واللاشكل واللامضمون حيناً آخر كذلك ، وربما عكس الشكل وعكس المضمون ، إلى ما هنالك من مطامح إنسانية إلى الاتيان بالجديد الذي لم تأتِ به الأوائل ، ولا الأواخر . ويبدو أن الأمر سيستمر كذلك طويلاً .

ومن أبرز الشعارات الأدبية : الفن للفن ، والفن للناس . وعن هذين الشعارين تنبثق شعارات ومواقف ومدارس لا يهمنا الآن أن نعرض لها لأنهّا تكون تاريخ الأدب ، لأنها تستلزم دراسات أكاديمية مطولّة . ومن الخير أن يفعل المرء ذلك ، ولكن كل شيء في أوانه .

بيد أني سأشير إلى المبدأ الذي آخذ به في الأدب

خاصـة ، وهـو أنَّ علينـا أن لا نلجـأ إلى التعميمات الشمولية ، وأن لا نرتاح كثيراً إلى الخط الفاصل بين الخطأ والصواب ، بل يجب علينا أن نكون يقظين دومـاً ، وأن لا نغفل عن هذا الخط الذي قد يدخلنا كثـيراً في مناطق الخطأ وهو يوهمنا أنها مناطق الصـواب ، أو في مناطق الصواب وهو يوهمنا ـ أو نحن نتوهم عبر أفكار صارمة مسبقة ـ أنها مواطن الخطأ . فالفن للفن ليس شراً كاملاً يجب اطراحه ، أو يجب اطِّراح كل من ينـادي به . إننـا نعتقد مثلاً أن الفن للنـاس ، فردُّ الفعـل الأول إذن أن نطرح كل ما يقول به الفن للفن ، هذا نوع من التعصب غير العلمي ؛ قد نطرحه كمبدأ شامل متكامل ، ولكننا قد نتفق معه في عدة تفصيلات ، وهذه التفصيلات لا ننكرها لأننا ننكر الجُمْلة . فلا بُدَّ من أن نحفظ من شعار الفن للفن ، هذا الإخلاص المتفاني في حب الكلمة ، في اصطفائها ، في اختيار مسكنها ، وجوارها ، وجوهـا والقوانين التـي تتحكم بها ، أو التي تتيح لها الحرية القصوى ، ولا بد لنا من أن نحب الموسيقى والغنائية وأن نرتاح إلى هذا الذي

يتعبد الكلمة ويفتش عن أفضل مكان لها ؟ كما لا بد لنا من أن نؤمن بأن التعبير الشعري وأن الأسلوب الشعري شيء آخر مختلف تماماً عن التعبير والأسلوب في صحيفة يومية أو خطبة سياسية أو اجتماعية ، وإن كنا نرى أن لا تخلو هذه أيضاً من سمو وتميز . ولقد كانت بعض الخطب أو بعض المقالات تنافس الشعر بلاغة وجمالاً ، وإن كانت ليست من الشعر في شيء ، ولم يكن الشعر منها في شيء .

كذلك علينا الاعتراف بأن الكلمة وجدت أصلاً ليتفاهم بها الناس وليفهمها الناس ، ووجدت أيضاً لخيرهم ، لمساعدتهم ، لكي تكون لهم دعماً روحياً ونفسياً بل مادياً أيضاً . فلا معنى لأدب لم يكتب لنا ، أو لا نستطيع أن نستفيد من جماله اللفظي والمعنوي ، أو لا نستطيع اصلاً أن نفهمه . ولا شأن لنا بأدب ـ إن صح كونه أدباً ـ يشيعُ الضعف اللغوي والنفسي في محيطنا وبيئتنا ، ولا معنىً لأدب لا معنى له . إذن يجب أن نكتب

للناس ، كي يقرأنا الناس ، وكي يستفيدوا جمالياً وحياتياً مما نكتب ، وكي يكون أدبنا حاضراً ، في نفوسهم ، وربما كي نكون نحـــن ، صُنّـــاعَ هذا الأدب ، حاضرين في نفوسهم . ولا بأس بذلك .

## ولكن هل الأدب الجماهيري هو هذا وحده ؟

لن ألجأ في شرح الأدب الجماهيري إلى نظريات أو تعابير تبـدو كالمعميات ، كي يقـال إنـي مُنَظِّـر أو كي يتـوقف مشدوهـا أمـام تعابـيري بعض أدعياء المعرفـة أو ناقصي الثقافة ، أو كي أقلد هؤلاء الـذين يريدون أن يستـروا جهلهم بتعابير متعالمة منقولة من هنا وهناك ، أو في أفضل الأحوال وأسوأها معاً هي من نتاج جهلهم الخاص .

الأدب الجماهـيري هو المرحلـة الأكثـر تقدمـاً والاكثـر انسانية ، والاكثر فنية بين ما عرفنا من آداب ، وأنا أقصد بذلك ما يجب أن يكون عليه فإن لم يسر في هذا الطريق فهو لا يسير في الطريق الجماهيري . وليس كل ما سار في

هذا الطريق يصبح بالضرورة غاية الغايات في الشعر والمسرح والقصة والرواية وغيرها من الفنون المكتوبة ، فهذا عائد في آخر المطاف إلى مدى تحلي الأديب بالموهبة والعبقرية والثقافة والمعاناة والإخلاص والاجتهاد والمثابرة والانفعال العفوي ؛ غير أن الذي يسير على طريق الأدب الجماهيري ، بوعي للمسؤولية والرسالة الأدبية التي هي رسالة حياتية شاملة ، لا بد من أن يقدم لنا شيئاً مجدياً ، شيئاً له محل في الحياة ، وله دور يؤديه مهما كان عمره قصيراً .

ولكنْ ما من ريب عندي في أن الأديب الجماهيري العبقري حقاً يكون هو الأديب الاكثر كما لا ، الاكثر تميزاً ، الأسمى عطاء على صعيد الفن والحياة ، في جميع ما تقدم من آداب ، وبالطبع يكون الأقرب إلى الجماهير .

إن الأديب ـ والشاعر بشكل خاص ـ ما كان يوماً من الأيام يعتمد فقط على السليقة ، أو الموهبة ، أو على الإلهام كما يعتقد بشكل تبسيطي وسطحي بعض الناس أو كثير

منهم . فالموهبة حقيقة ، ولكنها ليست كل شيء ، وهي ليست شيئاً هيولياً مطلقاً ، بل فيها الكثير من معالم الواقعية ، إن لم تكن هي الواقعية بشكلها الاكثر شفافية ورهافةً واستقطاباً لذرات لانراها بالعين الناقدة أو الباحثة المجردة العادية . ومع ذلك فإن الشعر ـ أو الأدب عامة ـ لم يكن يوماً من الأيام يعتمد على الموهبة فحسب ، حتى هذه التي يخيل الينا أنها هيولية ، أو غيبية إذْ كان الشعراء دوماً من أكثر أهل عصرهم علماً ووعياً ويقظة وحضوراً ذهنياً وحياتياً في العصر ، واستفادوا من تجاربهم وتجارب غيرهم ، ومن أسفارهم وأسفار غيرهم ، ومن معاناتهم الخاصة التي كانت في أغلب الأحيان معاناة متميزة حملتهم حتى إلى الموت .

إن الأدب الجماهيري ببساطة علمية هو التعبير عن فلسفة العصر الجماهيري بشكل فني . وكما أن العصر الجماهيري ذروة النتاج الروحي والمادي الانساني عبر الأزمنة ، فإن الأدب الجماهيري هو ذروة النتاج الفكري ـ الفني

الانساني عبر الأزمنة . والأدب الجماهيري يحمل ـ ككل فن ـ رسالة ، ولكن الرسالات متمايزة فيما بينها بما تحمل ، وهذا هو مبرر وجودها ، كما أنه ـ في الوقت نفسه ـ يلقي عليها مهمة جديدة ثقيلة ، وعليها أن تكون واعية ، متيقظة ، مزودة بكل ما يمكن أن يجعل منها مؤدية للرسالة التي تحمل ، أو التي أخذت نفسها بها أخذاً صارماً .

للعصر الجماهيري فلسفته الحياتية ـ الانسانية المتجسدة في الكتاب الأخضر ، وخطب صاحب النظرية وشروحه . والأدب الجماهيري ـ ككل قطاع جماهيري في العصر الجماهيري أو البيئة الجماهيرية ـ لا بد له من العودة إلى الكتاب الأخضر ، ومن تأمله ملياً ، وتفهمه ، والتحمس في حَمْلِهِ زاداً ذاتياً ، وزاداً للناس . وتأمل الكتاب الأخضر يدعو ، بالضرورة إلى أن نعود لعصور ماضية ، وآداب ماضية فنستوعب كل الجمال والخير فيها ، من خلال النظرة الفلسفية المنهجية المكتسبة من دراسات الكتاب الأخضر .

وكما أن السلطة والثروة والسلاح يجب أن تكون بيد

الشعب فكذلك الأدب . عليه أن يكون للشعب . ولكن
كما أن مفهوم السلطة للشعب هو في الفلسفة الخضرا
شيء مختلف تماماً عن تطبيقه في مختلف الجمهوريات
والامارات والملكيات ، فكذلك نجد أن مفهوم الآدب
للناس ـ في ظل المفهوم الجماهيري ، هو شيء متميز أيضا
عن كل ما أجْلَبَ به الداعون إلى كتابة من أجل الشعب ،
رغم اعترافنا بما قدَّمته هذه الدعوة في حينها ، أو ما اجتهد
الآخذون بهذه الدعوة ـ وهي بدورها متشعبة المفاهيم ـ
كي يقدموا لنا شيئاً جميلاً ومفيداً من خلال ما يعتقدون وما
يبدعون .

إن شعار السلطة للشعب لا يمكن أن نجسده ـ حسب
المفهوم الجماهيري بالمجالس النيابية أو مجالس الشعب أو
التمثيل النيابي على اختلاف اشكاله ـ من حزب واحد إلى
مجموعة أحزاب ، إلى تمثيل نسبي ، إلى غير ذلك .
وكذلك شعار : الأدب للناس لا يمكن أن نقبل بتجسيده
في تمجيد تقليدي متهافت غير ذي دلالة ولا مضمون
نستلهم منه فيلهمنا ، إلاّ ما كان من هتافات أو تقريرات

بأن السلطة في يد الشعب أي بما هو انعكاس للمفاهيم القديمة البالية المرفوضة التي تأخذ بالقوالب الجاهزة التي فقدت زخم الحياة . أيْ أنَّ هذا الأدب مرفوض أيضاً .

وكما أن السلاحِ بيد الشعب ، لا يعني تسليح فئة من الناس تغدو أداة قمع في يد السلطة ، وأداة اعتداء على حريات الناس ، فكذلك الأدب للناس لا يمكن أن يكون وقفاً على نخبة ما ، أو على فئة ما ، تستغلُّه لأهدافها ومآربها .

وكما أن الثروة بيد الشعب لا تعني أن يحتكر الثروة من يدَّعون تمثيل الشعب ، إذ باعتبارهم ممثلي الشعب يحق لهم أن يستولوا على ثروته ، وبذلك يتمُ تطبيق شعار الثروة بيد الشعب ، فكذلك الأدب للناس لا يمكن أن يكون احتكاراً من فئة أو عصبة ، فلا يرون الأدب إلاَّ من خلال ما يرون ، ولا التعبير إلاَّ من خلال ما يُعَبِّرون ، ولا المفهوم الشعبي أو الجماهيري إلاَّ من خلال ما يفهمون ، فهم يعتبرون أنهم هم الشعب ، وإذا خاطبوا أنفسهم

فكأنما يخاطبون الشعب ، وإذا مجَّدوا أنفسهم فكأن
الشعب هو الذي يمجدهم .

إنَّ الأدب الجماهيري هو قبل كل شيء أدب لا تحد
المدارس ، لأنَّ أدب الحياة أشمل من المدارس . صحيح
أن المدارس تستخلص من الحياة مواقف معينة ، وقد تلح
على هذه المواقف مؤكدة حتى تكاد تبسطها على مساحة
الحياة ، ولكنَّ الحياة يَظل باستطاعتها أن توحي إلى
مدارس كثيرة . والأدب عامة هو مجموع هذه المدارس
وليس إياها تماماً ، إذ تظل له نظرته الخاصة واستنتاجه
الخاص وتعبيره الخاص . وهكذا فإن الأدب الجماهيري
هو أدب الحياة بكل اطمئنانها وفَوَرانها في المجتمع
الجماهيري .

ولعل مدارس الأدب المحدَّدة ، الضيقة ، المتعصبة
هي كالأحزاب ، فكما أَنَّ من تحزب خان ، فكذلك من
ينتمي إلى مدرسة أدبية أو يحاول أن يطبق مقولاتها بصرامة
وحرفية وضيق افق هو في حقيقة الأمر خائن لقضية الأدب
الجماهيري لأنه مسيء له اساءة بالغة ، مسيء لجماهيره

مسيء لنفسه ، إذ يجعل الأدب خادماً للمدرسة الأدبية وليس خادماً لجماهير المجتمع .

ويحصل ما يحصل ، داخل الأحزاب ، من تعصب نَفَتْهُ الكلمة العربية التراثية : «ليس من العصبية أن يحب المرء قومه ، ولكن من العصبية أن يرى شرارَ قومه خيار قوم آخرين» . وهكذا يصبح الأدب ، داخل المدرسة ، غاية بذاته ، أو وسيلة لخدمة المدرسة ، كما يصبح الحزب غايةً بذاته ، أو وسيلة لخدمة الزعيم أو الاوليغاركية ـ الأقلية ـ المتكتلة حوله لحماية مصالحها به ، ولحماية مصالحه بها .

ولا شك في أن مقولة شركاء لا اجراء تجد صداها الواسع ، لا في الاقتصاد فقط ، ولكن في الأدب أيضاً . وهكذا يغدو الأدب للناس عامة ، ليس لنخبة ، أو فئة أية كانت هذه الفئة ، وإنما هو حق للناس جميعاً .

ولا شكَّ في أن نظرية القوميات والعامل الاجتماعي في الكتاب الأخضر عظيمة الأهمية بالنسبة للأدب ، هي الأخرى . فلئن كنا جميعاً نتلاقى في الانسانية ، وعلى هذه

الأرض ، وإذا كنا محكومين أو مُخيرَّين بأن نعيش معاً ، فيظل ، مع ذلك لكل قومية خصائصها ، وهذه الخصائص هي إغناء للانسانية ، وعامل تقريب بين البشر ، وليست بحال من الأحوال عامل إفقار أو تشتيت . وهكذا علينا ، بمفهوم الأدب الجماهيري ، أن نؤمن بأن لنا خصائص أدبية وفكرية ، ومقومات لهذا الأدب ولهذا الفكر ، ونحن إذ نتخلى عنها ، أو عندما ننكرها فإنما نتخلى عن أنفسنا أو ننكر أنفسنا ، فهؤلاء «الادباء» أو «المتأدبون» الذين يحاولون تشويه تاريخهم الأدبي ـ لنتحدث عنه فقط ـ وذلك بتشويه حقائقه ، أو قلب مفاهيمه وتزويرها ، زعماً منهم أنهم استفادوا من نظريات أجنبية ، أو طمعاً مِنْهُمْ في مواكبة ما يخيل اليهم أنه أدب عصر جديد ، هؤلاء هم غرباء عن أُمَّتِهم أصْلاً ، وهم مأجورون بالجهل ـ إذا أحسنا الظن ـ وبكل ما عداه وما دونه في باقي الأحوال .

بالطبع ، لا يعني هذا التعصب ، ولا يعني التقوقع ، ولا الغرور . فالانفتاح على ثقافات العالم مطلوب ، بل

هو حق طبيعي ، لا بد منـه ، يؤكده أننـا جزء من هذا العالم ، نحيا معـاً ، ونتعامـل اقتصادياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً ضمن حدود خَيِّرة نحاذر أن يتغلغـل في طياتها الشر ، وإن كان حَذَرُنا لا يمنعه دوماً من التغلغل . ألمهم أن نكون قادرين بعـد ذلك على اكتشافـه ومحاولـة كبحه ولجمه والقضاء على كل أثر شرير له .

لقد كثرت ، على كل الاصعدة ، المناورات والمؤامرات لا ستنزاف الأمة العربية ، ثرواتٍ وأدمغة ، وللقضاء على مقوماتها الروحية الجبَّارة الطاقة ، وتفنن العدو بأساليبه ، واسْتَخْدَمَنا ، حكاماً وأفراداً ، لهذه الغاية . ومـن جملـة الأشكال التي حاربنا بها وسائل إعلامنـا ، أو بالأحـرى وسائل الإعلام التي تصـدر باسمنـا (إلى جانـب اسمـه أحياناً) وتقدم لنا السم في الدسم ، ونحن الذين نغذيها ، في أغلب الأحيان ، بالمال والكتَّاب ، كي ينقلب كل ذلك ضِدَّنا ، وبشكل لا أوْقح ولا أكثر إجراماً ، وتلك هي الغزارة التي قلنا عنهـا أنهـا ليسـت دليل خـير ـ بل على العكس ، في تلافيفها الشر كل الشر ، كالسيل المخرِّب

الذي يترك وراءه اليباب ، وأين بعد ذلك اليد والعقل اللذان سوف يستصلحان ، وكم عليهما ـ إذا وُجِدا ـ أن يقضيا من وقت في سبيل إعادة الحياة من جديد .

إنَّ علينا أن نتخذ مواقف حاسمة في هذا المجال ، كما في أي مجال حياتي آخر . إنَّ وسائل إعلامنا ، غير الجماهيري ، تغص بها الأوطان والمهاجر ، وتؤوي من الأدعياء الدخلاء ما لاحصر له ، وتعمل تشويهاً في كل مقوماتنا الثقافية ، ولا نستطيع أن نقيم سداً في وجهها لأنه ليس هناك من مفهوم واضح لنا حول حقيقتنا عامة ، وبالطبع حول حقيقتنا الأدبية خاصة . هناك أفكار مشتتة تتناوب علينا كالتيارات الكهربائية ، ونحن نشهرها سلاحاً ، وقد يكون بعضها صحيحاً ، وقد تكون كلها صحيحة ، ولكنها تظل ناقصة ، وتظل بحاجة إلى فلسفة حياتية واضحة عميقة شاملة تحشد طاقاتها المبعثرة ، وتجمعها ، كتلك الروافد التي تصنع شلّالاً مولِّداً للطاقة القوية المجدية . وهذه الفلسفة هي مفهوم الأدب الجماهيري .

إنَّ عاملاً ، مثلاً ، في احدى وسائل الاعلام ، المموَّلة من عرب أو غرب ، أو عرب وغرب معاً ، والذي عليه بالضرورة أن يماشي الأنظمة الممولة مهما كانت ، لا يحق له ، كي يظهر بمظهر الثائر ، أو بمظهر العصري ، أن يتهجم على أدبنا العظيم بما هو منه براء ، بما ارتطم فيه هذا الإعلامي وأشباهه من عمالة مأجورة . إن مثل هذا الشخص هو أجير ، وهو عبد ، أي ليس شريكاً لنا في الحياة ، وليس حراً في القول أو العمل . وعلينا أن لا نتقبل مجتمع الاجراء والعبيد ، فإذا لم نستطع أن نرفعه إلى مجتمع الشركاء والأحرار فيجب علينا أن نجرده من وسائل الأذى الذي يمكن أن يلحقه بالمجتمعات الشريفة النظيفة ـ وهنا يبدو لنا الأدب كالمرأة في المجتمعات الشرقية والغربية الحالية . (فالمجتمعات تنظر للمرأة الآن كسلعة ليس إلاَّ . . الشرق ينظر إليها باعتبارها متاعاً قابلاً للبيع والشراء ، والغرب ينظر إليها باعتبارها ليست انثى) كما جاء في الكتاب الأخضر وكذلك الأدب ، يحاولون أن يعاملوه كسلعة ، الأحزاب السياسية يهمها منه ما يخدم

أهدافها ، أو أشخاص زعاماتها ، فالقبيلة ، والحالة
هذه ، كانت أرحب نظرة إليه . فإذا لم يخدم الأدب هذه
المجالات ، سلطوا عليه أجهزة قمعهم ، ومحوه من وسائل
إعلامهم ، ولربما حاربوه بالصمت والتعتيم ، أو
بالتشهير الكاذب ، إلى آخر أساليبهم . ولا تشذ الأنظمة
الفردية عن هذه النظرة إلى الأدب . والأمر بالغ الخطورة
في الوطن العربي على سبيل المثال ، فهنالك فقر مدقع ،
وهناك ثروات غير انسانية ، وقد وظفوا قسماً هائلاً - وأن
كان قليلاً نسبياً - في سبيل تزوير الأدب وتشويهه وجعله
غير ذي موضوع ، وغير ذي مسؤولية ، والأديب ،
بشكل عام ، ككل مثقف ، معرض لأن يكون انتهازياً
لأن المغريات تحيق به ، فإذا خضع وكان عبداً لها ، أصبح
الأدب مسخراً ضد مصلحة الجماهير ، ضد مصلحة ترابط
الأمة ، ضد مصلحة الأدب نفسه لأنه يصبح غيره .

أما الغرب الذي يعتبر المرأة ليست بالأنثى ، فهو الغرب
الذي لا يرى في أديب العالم الثالث ، بخاصة ، إلا مطية
له لبلوغ آرابه من كل الجهات وبشتى الوسائل ، لذلك

فهو يغريه أيضاً بالشهرة ، وبأضواء العالمية الكاذبة ، ويحاول بعد ذلك أن يصنع منه العوبة بهلوانية تحاول بدورها أن تخدعنا ، في غياب قلوبنا وأفكارنا وأبصارنا .

وكما (أن الثورة ليست استيلاء مجموعة مسلحة على السلطة وإنما هي بالمعنى السياسي استيلاء الجماهير على السلطة ، وقيام سلطة الشعب) كما جاء على لسان قائد الثورة ، فإن الثورة في الأدب ليست استيلاء مجموعة ـ بأي شكل من الأشكال على وسائل الاعلام ، وعلى مواقع الإعلام أية وجدت ، والتباهي بأنهم يملأون هذه الوسائل ، ويسيرونها حسب أهوائهم ومشيئتهم والاستنتاج من ذلك أنهم جماهير الأدب وقادته معاً . إن الثورة في الأدب هي وضع طاقات الأدباء كافة في خدمة سلطة الجماهير ، فتشبع هذه الطاقات حاجات روحية لابد منها في الانتصار الحياتي الشامل وكما أن المجتمع المزدهر هو الذي ينمو فيه الفرد في الأسرة نمواً طبيعياً كما جاء في الكتاب الأخضر فكذلك الأدب المزدهر ـ أي الأدب الجماهيري ـ هو الذي ينمو فيه الأديب في وسطه

وأمتــه نمــواً أدبياً طبيعياً . أي أن لايكون شاذاً ، وأن لايكون نبتةً غريبـة . والنمـو الطبيعـي هو الـذي يولـد العبقرية ، وليس الشذوذ . وإذا كان هناك بعض عباقرة شاذين ، فإنهم لم يكونوا عباقرة لأنهـم شاذون ولكنهـم كانوا عباقرة أولاً ، أي أن العبقرية والشـذوذ منفصـلان الواحد عن الآخر . فالشذوذ لايولد العبقرية ، والعبقرية لاتولد الشذوذ . وإنما النمو الطبيعي في أحضان الأمة ، وتراث الأمـة ، والوفـاء لهـذا الوسـط العـائلي الفـريد ، والاستعداد الشخصي الذي يوجز أحيانـاً كثـيرة حصيلـة استعـدادات ماضية كثـيرة متراكمـة . . كل هذا يصنـع العبقرية .

وكما (أن الأمم التي تحطمت قوميتها هي التي تعـرَّض وجودها للدمار) فكذلك الأدب الذي ابتعد عن خصائص هذه القومية لابـد من أن يتعـرض وجـوده للدمـار ، هو الآخر ، وبحسبه أن يُدَمَّر قبل كل شيء في عقر داره . أما الأمم الأخرى فليسـت بحاجـة إليه ، ولئـن استخدمتـه بعض القوى الأجنبية وروَّجت له ، أو روجت له وسائل

إعلامها حتى في داخل البلـد القومـي ، فما ذلك إلا من قبيل المؤ امرات المتعددة الأشكال على هذا البلد القومي . ومثل هذه المؤ امرة ليست أقل هذه المؤ امرات .

إن الأدب الـذي يأخـذ مكانـه والـذي يؤ دي دوره هو الأدب الذي يتمثل محيطـه وقوميتـه ويعبـر عنهما أسمـى تعبير ، ويحملهما إلى المجال العالمي فناً رفيعاً ، نقياً صادقاً مجدياً ، ولايعني هذا القول عدم تفاعـلِ الثقافـات . بل لابد من هذا التفاعل ، ولكن كيف يتمُّ ذلك إذا لم تقدم كل أمة أصفى خصائصها وأنقاها وأصلحهـا . والحـق ـ أولاً وأخيراً ـ أنه لايمكن لثقافة دولة كبيرة قوية ـ عسكرياً أو سياسياً ـ أن تطغى على ثقافة دولة أقل منها أهمية ، وفي مجال الأدب ، لاأمم كبيرة أو أمم صغيرة .

لقـد جاء في الكتـاب الأخضر (الانسـانية لاتعـرف ما يسمـى بالدولـة) والدولـة هي الصيغـة السياسية ـ التسلطية للفرد أو للحزب أو للزمـرة . وباعتبـار الأدب فكرة فنية شمولية أي انسانية فإنه لايصـح له أن يتقوقـع ضمـن مؤ سسـات الدولـة ، وأن يصبـح جهـازاً من

أجهزتها ، ووسيلة من وسائلها . بل عليه أن يؤ دي واجبه
الانساني . إذن الوطني والقومي ، بكل شمولية الفكر
وصدقه وشعوره بمسؤ وليته وواجبه ودوره في أن يكون
لجنة ثورية تحرض على الوعي العميق بالجمال والخير
والتضحية في سبيل الأهداف الوطنية والقومية والانسانية
التي هي أهداف الفن والأدب بصورة عامة .

ولئن كان (العالم هو الأمة بعد أن تشعبت إلى أمم نتيجة
التكاثر . . إذن العالم هوامة كبيرة) . فالأدب ، في
جوهره عالمي ، أممي ، أي انساني ، وهو بهذه الصفة يعبر
عن أعمق الخصائص الانسانية وأكثرها أصالة . وبهذه
الصفة الأخيرة بالتالي يغدو عالمياً .

إن الأدب الجماهيري هو لجنة ثورية مهمتها التحريض
دون تسلم السلطة . والسلطة هنا هي ما يجول في أفكار
البعض من أنهم أدباء كي ينالوا حظوة ومكانة في الحياة
وبعد الموت . في الحياة لهم الوجاهة ، والمال ، والمباحات
وغير المباحات ؛ وبعد الموت أو على حدود الحياة والموت
لهم الخلود . إن الأديب الجماهيري لايغدو أديباً لأن أمام

عينيه هذا المطمح أو ذاك المطمع . فالأديب الجماهيري
إنسان ذو رسالة ، يعمل بلا كلل ، وبلا انتظار للثواب ،
إلا أن تنتصر الأفكار ، أي تنتصر الحياة ، أن ينتصر الأدب
الذي يؤمن به ، وهو أدب في سبيل الانسان والجماهير .

ومادام الأدب عامل تحريض فهو في حركة مستمرة ، في
ثورة مستمرة ، في تجديد وتجدد مستمرين . ولو أنه لم
يكن كذلك لدخلت الأسونة إلى كيانه وتفسخ ، وتناثر .
إن كونه عامل تحريض هو ضمان لإبداعيته ،
واستمراريته ، وفاعليته ، وهو تخفف من كل الأثقال
المنتنة التي تعيق حركته الصاعدة بالجماهير ، الفاعلة في
حياة الجماهير ، المستمدة من نضال الجماهير .

إن الأدب الجماهيري إذن هو فدائي لاتهمه الغنائم
الأحُدِية . وإنما يهمه التحرير ، ويهمه انتصار الرسالة
ومن هنا يجيء هذا الأدب صافي الإنسانية ، صافي
المورد ، صافي المصدر . والنقاء من شروط الأدب
العظيم .

وباعتبار الأدب الجماهيري فدائياً فهو يتخلص بالتالي من حبائل القوة المعادية التي تجذبه لأن يسقط فيها فراشة مصباح . في حين أنه لايقبل أن يسقط إلا مناضلاً مقاتلاً عنيداً ، بل هو في هذه الحالة لا يسقط بل يرتفع نموذجاً وقدوة ، ولواء . في حين أن الأدب غير الجماهيري - مهما بدا لنا أنه حسن النية ، فلا بد من أن يسقط في تناقضات ، ولا بد من أن يساوم ، ولا بد من أن يحاول تبرير أخطائه وتزيينها ، فهو يشوه الحقائق لأنه خجل بأن يظهر على حقيقته .

ولذلك ما كان للأدب الجماهيري أن يقبل دعوة للابتعاد عن التراث ، والتراث هو القومية ، وهو العامل الاجتماعي المحرك .

وما كان للأدب الجماهيري أن يقبل الاستهانة باللغة لأن اللغة هي واحدة من أهم خصائص القومية وخصائص التراث . ووحدة هذه اللغة وسلامتها ، هي وحدة للأدب وسلامة له .

وما كان للأدب الجماهيري أن يقبل عدم وضوح الرؤية ، لأن هذا يقود إلى الجهل بالطريق المؤدي إلى الخلاص ، أي عدم بلوغ هذا الخلاص ، والتخبط المستديم بحثاً عنه ، وكذلك فإن عدم وضوح الرؤية أمام الأدب تفقده الكثير من قوته ، وفاعليته ، وجماله ، وجدواه ، لأنه يفقد كل هذه المقومات وهو يتخبط في بحثه ، أوْ عدم بحثه عن شيء ، بدل أن يجندها طاقة جبارة ، يزداد بها المحيط قوة وفاعلية وجمالاً وجدوى وتزداد هي بالمحيط كذلك .

والأدب الجماهيري لايمكن أن يرسم طريقة التعبير للأديب الجماهيري ، ولا أن يحدد له مجالاته ، ولا أساليبه ، فالأديب إنسان حر من خلال مسؤولياته الأدبية الجماهيرية ولا يمكن لنا أن نحصر الأدب الجماهيري ضمن مدرسة أدبية إلا أن تكون المدرسة الأدبية الجماهيرية ، ونحن نحصره بها لأنها ، أصلاً ، هي مدرسة الحياة والأدب للحياة ، على ضوء الفلسفة الحياتية الشاملة التي تقود ليس فقط للانعتاق النهائي

للانسان ، بل للارتقاء الأسمى أيضاً ، أو لعلهما معنى واحد لكلمتين متلازمتين في الانطلاق .

ولكنَّ هذه الحرية لايمكن لها أن تكون حرية التخريب ، لأن الأديب الجماهيري ثوري من طراز جديد ، أي عضو في لجنة ثورية بمعناها الجماهيري . إنَّ الأديب الجماهيري حرٍ لأقصى حدود الحرية ، كي يبدع ، ويأتي بالجديد ، وكي يتفوق ، وكي يُدهِش ، وكي يكون كل ذلك في سبيل إبقاء شعلة الحب الانساني التي تنير الدرب لكل انجاز عظيم ، وتبث في الانسان ، كما تبث في الدجى - لهبها المتألق .

والأدب الجماهيري بمنجاة من العبث لأن النظرية تعلمه أن الحياة جد ، وهو جدٌّ لتأمين كل ما يصنع سعادة الانسان ، وكل ما يضفي عليه الهناءة والبشر والتفاؤل .
وهذه السوداوية نكافحها بالمسؤولية ، وبالعمل ، وبالجهد المشترك المواظب ، وليس باليأس وإشاعة الاستسلام ..

ولئن جاء في الكتـاب الأخضر أن (المواد المنتجـة التـي كانت أدوات بدائية أصبحت الآن معدات فنية معقـدة) فالأديب الذي كان يعالج حياة مهما بداله من تعقيدها ، فهي بسيطة بالنسبة لما تعقد من حياة هذا العصر ، أو كان يعالـج مجتمعـاً ذا تركيب بسيط ، إنمـا كان يعالجـه بأداة بسيطة ، لم تحمـل ما نحملهـا الآن من رمـوز . والحياة أصبحت أكثر تعقيداً ، وأدواتنا الفنية كذلك ـ ولكن علينا أن نعـرف كيف نعالـج هذه الأدوات المعقـدة في أرفـع مستـوى ، كما بلـغ أسلافنـا بأدواتهـم البسيطـة أرفـع مستوى ، ونظل كما ظلوا قريبين من الناس .

وبعد .

هل وُجِدَ العمل الأدبي الجماهيري قبل انبثاق النظـرية متكاملة في الكتاب الأخضر .

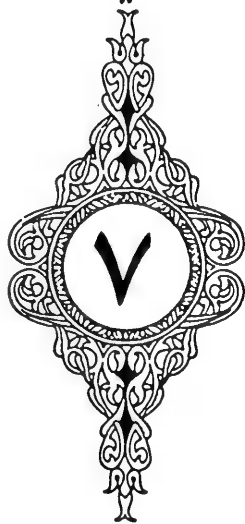
أعتقـد أن تاريخ الانسـانية الأدبـي قد أعطـــى أعمالاً انسانية خالدة فيها الكثير أو القليل من ملامح النظرية ، ومما توحي به . كما أن النظرية نفسهـا نجـد لهـا جذوراً

وأصولاً في الفكر الانساني ، ونجد أحياناً تفاصيل مبثوثة هنا وهناك . ولكن كما أن النظرية هي فلسفة العصر الجماهيري المتكاملة ، ولم توجد هكذا كفلسفة جماهيرية متكاملة إلا في الكتاب الأخضر والشروح والمقولات الملحقة به ، فإن الأدب الجماهيري لابد له من أن يستند إلى هذه النظرية ، وأن يكون مشبعاً بها ، مستلهماً إياها . وهكذا نجد شوامخ الأدب في تاريخنا منسجمة هنا وهناك ، مع مفهوم الأدب الجماهيري ، وهي قد اكتسبت مكانتها القومية والانسانية بهذه الروحية الجماهيرية المتغلغلة في أشكالها البيانية ، المندمجة معها في كل واحد ، المؤلفة لفيفاً جمالياً ـ مجدياً مقروناً غير مفروق .

أما العمل الأدبي الجماهيري المتكامل فأعتقد أنه يجد تجسيده الواقعي بعد التملي من النظرية العالمية الثالثة ، مسترشداً ما فيها لخير الانسانية على جميع الأصعدة ، وفي طليعتها ـ من خلال موضوعنا ـ الصعيد الأدبي ، وإن كان أبداً هو ضمن سلسلة انسانية لا تنفصل حلقته عنها

ولا تتخلى هي عن حَلْقته .

وإذا كان «الانسان بشكله الجديد سيبقى دائماً عنصراً أساسياً في عملية الانتاج» فبالطبع يدخل في ذلك ، الانتاج الأدبي . وعلى الانتاج الأدبي أن يعي ذلك جيداً ، ولن يكون انتاجاً أدبياً سامياً صادقاً إلاَّ إذا اتجه نحو الانسان الجديد ، وناضل في سبيل انبثاق هذا الانسان الجديد . . إنسان عصر الجماهير .




# دَعوةُ حُبٍّ وَخَيرٍ

# إلى الشَّبابِ العَرَبِيِّ

الشباب ـ بحد ذاته ـ موهبة وأمل . ولكن لابد من أن نُغْني هذه الموهبة وهذا الأمل ، بالقوة والعمل . وعندما أرى الشباب يدرك عمق مدلولات المقولة : الثروة والسلاح والسلطة بيد الجماهير ، باذلاً في سبيل انتصار ذلك موهبته وقوته وعمله أدرك أن هذا الشباب قد سار على الدرب الصحيح ، وهذا يعني أنه سيصل مهما اعترضه من مصاعب ومعوقات ، هي بمثابة الحوافز والدوافع ، وليست بحال من الأحوال ، من دواعي اليأس والانهيار والتوقف أو التراجع .

إن الكثير من جهود جيلنا ، والكثير من نضالنا قد ذهب أدراج الرياح ، أو في أحسن الأحوال لم يصل بنا إلى

ما كنا نؤمل . وأعزو ذلك ، بالدرجة الأولى ، إلى أننا كنـ
نخبط في ضباب لقد كان الدرب لنا واضحاً حتى اجلاء
المستعمر . وخضنا كفاحاً مريراً ، وأجليناه . ولكن لمَّا لم
نكن مزودين بنظرية متكاملة صحيحة ، فقد تمزقنا ، وقد
حدنا عن النهج ، وقد اقتنصتنا مغانم ، وقد أطاحت بنا
مؤامرات ، وقد حُمِلْنا على اليأس والانعزال ، وقد حُمِلنا
على المنافي ، وقد حملنا على الاستسلام . وقام منا الأقزام
التافهون ، وقام فينا الدجالـون ، وأصبحـت أجيال منـا
تكتفي بأن تردد أنها أجيال الهزيمة وتستنيم إلى كل ما في
الهزيمة من انحطاط .

وأنتم سوف تتسلمـون الـدنيا العـربية وهـي في أشـأم
عهودها من انقسام وتجزئة وفساد وموات نَجْدَةٍ ومروءة ،
وها هو الأجنبي المستعمر الجديد يدخل بلادنا من جديد ـ
إن يكن غادرها في أشكال جديدة ، بل يدخل بلادنا في
جلودنا نفسها . ولا أقول لكم هذا لأحملكم على يأس ،
أو لأقذف في نفوسكم الرعـب ، ولـكن لأقـول لكم أن
لديكم ما لم يكن لدينـا ، لديكم قائـد عربـي عبقـري

ملهم ، هو منكم وأنتم منه ، رسم لكم بفكره وبسيرته درب الخلاص ، خلاص الأمة العربية الذي لن يكون إلا بوحدتها ، وإلا بأن تمتلك جماهيرها السلطة والسلاح والثروة . وهو بينكم ، يمارس بأعماله وأفكاره ، بمثاله المتألق .

إن الأمة العربية في حاجة عظيمة . لذلك كانت نظريته العظيمة . فيا شباب أمتنا العظيمة ـ العظيمة حقاً رغم كوارث الزمن ، وكوارث الزعامات والرئاسات فيها ـ العظيمة حقاً بأصالتها ، وطاقتها على التجدد ، ولا أستطيع أن أتصوَّرَ عالماً جديداً دون أمة عربية جديدة ، لأنه سيكون عالماً فقيراً جداً بالقيم والمثل كونوا ـ أيها الشباب قبل كل الناس هذه اللجان الثورية التي تصل إلى كل مكان ، وتقتحم المَعَاقل التي يَتَمَترس بها أعداء الجماهير ، أي ممثلو فكر العهود الرجعية المتخلفة ، المسيئة لشرف النضال الجماهيري ، لشرف الفكر والكلمة الجماهيريَّينْ ؛ كي تنتصبوا ، بكل حجمكم ووزنكم ، الأقوياء ، المخلصين لفكر العصر الجماهيري ، الناهضين

بمقولاته العلمية ـ الانسانية ـ الحياتية .

والكتاب الأخضر ـ قبل كل شيء ـ ملك العشيرة الأقربين .

وإن كنا نؤمن أن الكتاب الأخضر للانسان ، أينما كان .

# للمؤلف

- شعر

١ - معلقات العصر الجماهيري
٢ - الـمُوَثِّبات العشر في الجاهلية الأخيرة
٣ - مقاطع مهموسة إلا مقطعا بصوت مرتفع
٤ - للكلمات جهات تقصدها عمدا
٥ - أرواد وحلم آخر في العيون
٦ - نوافذ البروج المضاءة
٧ - بستان السحب
٨ - الرحيل إلى مدينة التذكار
٩ - الديوان الجديد
١٠ - أغان صيفية
١١ - الكلمة للشمس والشهيد
١٢ - الشاطىء الأبيض

**ب ـ دراسات أدبية**

١ ـ المجتمع في المسرح العربي الشعري
٢ ـ المجتمع في المسرح العربي الشعري (بالفرنسية)
٣ ـ الشعر الحديث بين التقليد والتجدد
٤ ـ الشعر العربي والقضية الفلسطينية

**ج ـ مسرح شعري**

١ ـ حم وزين
٢ ـ عريب أو المأمونية

**د ـ مسرح نثري**

١ ـ أغنية تقاوم اثني عشر غرابا

**هـ ـ شعر باللغات الأجنبية**

١ ـ نوافذ البروج المضاءة (بالفرنسية)
٢ ـ مختارات شعرية ( بالبلغارية)
٣ ـ للكلمات جهات تقصدها عمدا ( بالبلغارية)
٤ ـ القصيدة الخَضراء ( بالبلغارية)

## المحتوى